إيزابيل ألليندي

مكتبة

نساء روحي

ترجمة: مارك جمال

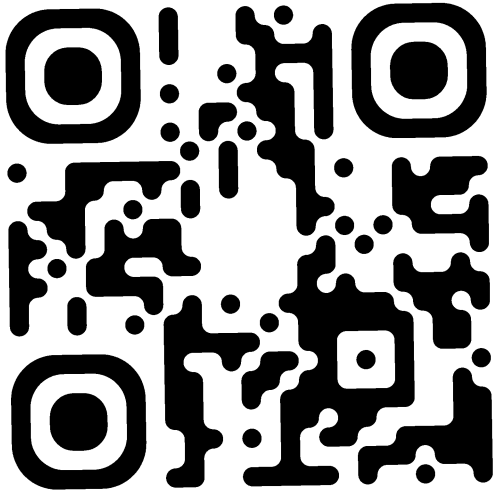

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

نساء روحي

عن الحبّ المُتلهِّف،
والعمر المديد، والساحرات الطيِّبات

نساء روحي

عن الحبّ المُتلهِّف،

والعمر المديد، والساحرات الطيِّبات

إيزابيل الليندي/كاتبة من التشيلي

ترجمها عن الإسبانيَّة: مارك جمال

الطبعة الأولى عام 2023

ISBN 978-9953-89-745-5

مكتبة

t.me/soramnqraa

دار الآداب للنشر والتوزيع

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة موقعنا:

www.daraladab.net

يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكترونيّ:

info@daraladab.net

rana.adab@gmail.com

إيزابيل الليندي

مكتبة
t.me/soramnqraa

نساء روحي

عن الحبّ المُتلهِّف،
والعمر المديد، والساحرات الطيِّبات

ترجمها عن الإسبانيَّة: مارك جمال

دار الآداب ـ بيروت

إلى پانتشيتا، وپاولا، ولوري، وسانا، ونيكول

وباقي النساء الاستثنائيّات في حياتي

مكتبة
t.me/soramnqraa

لا أبالغ لو قلت إنِّي كنتُ نسويَّةً منذ روضة الأطفال، قبل أن يُعرَف ذلك المفهوم في إطار عائلتي. وُلِدتُ عامَ 1942. ولذا، فنحن بصدد الحديث عن الماضي البعيد. أعتقد بأنَّ أصول تمرُّدي على السلطة المُذكَّرة تعود إلى وضع پانتشيتا، أمِّي، التي هجرها زوجها في بيرو، ومعها طفلَيْن في الأقمطة، وبين ذراعَيْها طفلٌ وُلِد حديثًا، الأمر الذي أرغم پانتشيتا على اللجوء إلى بيت أبوَيْها في تشيلي، حيث أمضيتُ سنوات الطفولة الأولى.

أمَّا بيت جدِّي وجدَّتي، الواقع بحيّ پروبيدينسيا، في سانتياغو، فكان عقارًا سكنيًّا آنذاك، واليومَ بات متاهةً من الحوانيت والمكاتب. كان البيت ضخمًا، قبيحًا، مسخًا من الإسمنت، بما حوى من الحجرات ذات الأسقف العالية، وتيَّارات الهواء، وسخم مدافئ الكيروسين العالق بالجدران، والستائر الثقيلة المصنوعة من المخمل الأحمر، وقِطع الأثاث الإسبانيَّة التي صُنِعَت لتُعمِّر قرنًا من الزمان، واللَّوحات البشعة التي تصوِّر أقرباءنا الأموات، وأكداس الكتب التي يعلوها الغبار. كان صدر البيت فخمًا، إذ سعى أحدهم إلى وسم الردهة والمكتبة وقاعة الطعام بسِمَة الأناقة، وإن لم تكُن تُستخدَم إلَّا في ما ندر. أمَّا باقي أرجاء البيت، فكانت مملكةً فوضويَّة، مملكة جدَّتي، والأطفال (أنا وشقيقَيّ)،

وعاملات المنزل، وكلبَيْن أو ثلاثة كلابٍ يتعذَّر تمييز السلالة التي تنتمي إليها، وقطط شبه برِّيَّة تتكاثر خلف الثلَّاجة بطريقةٍ عصيَّةٍ على السيطرة، فكانت الطاهية تُغرِق صغار القطط في دلوٍ بالفناء.

ماتَت جدَّتي قبل الأوان، فتبخَّرَت البهجة والأنوار من ذلك البيت. أذكر طفولتي على أنَّها حقبةٌ مفعمةٌ بالخوف والعتمة.

ممَّ كنتُ أخاف؟ كنتُ أخاف أن تموت أمّي فينتهي بنا المطاف في دار الأيتام، أن يختطفنا الغجر، أن يظهر الشيطان على صفحات المرايا... وفيمَ الاسترسال! أشعر بالامتنان لتلك الطفولة التعيسة لأنَّها منحَتني مادةً للكتابة. لا أدري كيف يتدبَّر حالهم أولئك الروائيُّون الذين عاشوا طفولةً هانئةً في بيتٍ طبيعيّ.

في عمرٍ مُبكِّر للغاية، أدركتُ أنَّ أمِّي تعيش في وضعٍ مُجحِفٍ إذا ما قورِنَت برجال العائلة. كانت قد تزوَّجَت رغمًا عن أبوَيْها، وفشلَت مثلما حذَّراها، فأبطلَت الزواج، إذ كان إبطال الزواج هو المخرج الوحيد في ذلك البلد حيث لم يُشرَّع الطلاق حتى عام 2004. ما كانت تملك التأهيل اللازم للعمل، ولا المال، ولا الحرِّيَّة، بل إنَّها صارَت هدفًا تغتابه الألسنة الخبيثة، لأنَّها منفصلةٌ عن زوجها، وفوق ذلك شابَّة، جميلة، مُتدلِّلة.

بدأ الغضب الذي أشعر به نحو الذكوريَّة في تلك الأعوام، أعوام الطفولة، حين رأيتُ أمِّي وعاملات المنزل ضحايا، تابعات، لا مورد لهنَّ ولا صوت، لأنَّ الأولى تحدَّت الأعراف، أمَّا الأخريات فكُنَّ من الفقراء. بطبيعة الحال، ما كنتُ أدرك ممَّا ذكرتُ شيئًا آنذاك، إذ توصَّلتُ إلى صياغة هذا التفسير وأنا في الخمسين من العمر، في أثناء العلاج.

وبرغم عجزي عن تعليل الأمر، فمشاعر الإحباط بلغَت من القوَّة حدًّا جعلني مهووسةً بالعدالة والرفض القاطع للذكوريَّة دومًا. كان ذلك الشعور بالاستياء نغمةً ناشزةً في عائلتي، المُثقَّفة العصريَّة. وإن كانت تُعتبَر عائلةً من العصر الحجريّ بمقاييس الوقت الراهن، بصراحة.

استشارَت پانتشيتا أكثر من طبيبٍ للتحقُّق ممَّا بي، لعلَّ ابنتها كانت مصابةً بالمغص، أو الدودة الشريطيَّة الوحيدة. كانت الشخصيَّة العنيدة الجامحة في حالتي مرضًا. أمَّا في حالة شقيقَيّ، فلقيَت تلك الشخصيَّة قبولًا باعتبارها شرطًا أساسيًّا من شروط الذكورة. أليس الحال هكذا في غالب الأحوال؟ إذ تُحرَم البنات من الحقّ في الغضب والركل بالأقدام.

كان في تشيلي أطبَّاء نفس، وربَّما أطبَّاء نفسٍ للأطفال أيضًا. وإن اقتصر ذلك الملاذ على المجانين الذين لا علاج لهم في تلك الحقبة التي هيمنَت عليها المحظورات. أمَّا في عائلتي، فحتى هذه الحالات قد حُرِمَت من الاستعانة بالطبّ النفسيّ، بل إنَّ مجانين عائلتي كانوا يحتملون في السرّ وكفى. توسَّلَت إليَّ أمِّي كي أتحلَّى بالمزيد من الكتمان. «لا أدري من أين جئتِ بتلك الأفكار، سوف تشتهرين بأنَّكِ امرأةٌ مسترجلة»، قالت لي ذات مرَّة، وإن لم توضح معنى تلك الكلمة العجيبة.

كانت مُحِقَّةً في شعورها بالقلق. في السادسة من العمر، طُرِدتُ من مدرسة الراهبات الألمانيَّات جزاءً لي على ما أبديتُ من العصيان، وكأنها مُقدِّمةٌ لمسيرتي في المستقبل. ولكنَّ السَّبب الحقيقيّ، وفق ما يخطر في بالي، أنَّ پانتشيتا كانت أمًّا عازبةً من المنظور القانونيّ، ولديْها ثلاثة أطفال. لم يكُن الأمر جديرًا بإثارة حفيظة الراهبات، لأنَّ أغلب

الأطفال في تشيلي يُولَدون خارج إطار الزواج، ولكن ذلك لا يسري على الطبقة الاجتماعيَّة التي تنتمي إليها تلميذات تلك المدرسة.

على مدى عقود، فكَّرتُ في أمِّي باعتبارها ضحيَّة. ولكنِّي تعلَّمتُ أنَّ الضحيَّة تُعرَّف بأنَّها شخصٌ يفتقر إلى السيطرة والسلطة على أوضاعه، الأمر الذي لا أعتقد بأنَّه يسري عليها. صحيحٌ أنَّ أمِّي بدَت وكأنَّها حبيسة، هشَّة، وأحيانًا يائسة، ولكنَّ حالها تبدَّل في وقتٍ لاحق، عندما ارتبطَت بالرجل الذي صار زوج أمِّي، وشرعا في السفر معًا. كان في مقدورها السَّعي إلى تحقيق المزيد من الاستقلال، وعيش الحياة التي رغبَت فيها، وتطوير قدراتها الهائلة، بدلًا من الخضوع، ولكنَّ رأيي لا يُحسَب له حساب، لأنَّني أنتمي إلى جيل النسويَّة، وأتيحَت لي فرصٌ لم تحظَ بها أمِّي.

من الأمور الأخرى التي تعلَّمتُها وأنا في الخمسين من العمر، في أثناء العلاج، أنَّ غياب أبي وأنا طفلة قد أسهم في تمرُّدي، على الأرجح. استغرقتُ طويلًا جدًّا حتى تقبَّلت العمّ رامون ـ كما كنتُ أدعوه طوال الوقت، ذلك الرجل الذي ارتبطَت به پانتشيتا وأنا في الحادية عشرة على وجه التقريب ـ وتفهَّمت أنَّني ما كنتُ لأجد والدًا خيرًا منه. أدركتُ ذلك حين وُلِدَت ابنتي پاولا، فهام بها حبًّا (وبادلَته هي الشعور نفسه). ولأوَّل مرَّة، رأيتُ الجانب الرَّقيق العاطفيّ اللَّعوب من زوج الأمّ الذي سبق وأعلنتُ عليه الحرب. أمضيتُ طور المراهقة وأنا أمقتُه وأشكِّك في سلطته، ولكنَّه لم ينتبه حتى إلى ذلك، وهو الرجل المتفائل الذي لا يُقهَر. قال عنِّي إنَّني كنتُ ابنةً نموذجيَّةً على الدوام. كانت للعمّ رامون ذاكرةٌ ضعيفةٌ للغاية متى تعلَّق الأمر بالسلبيَّات، حتى إنَّه عندما بلغ طور

الشيخوخة صار يناديني باسم أنخيليكا ـ اسمي الثاني ـ ويطلب منّي أن أنام على جنبي لئلّا يلتوي جناحاي[1]. ظلَّ يكرِّرها حتى أواخر أيّامه، حين صار هو ظلَّ الرجلِ الذي كانه، تحت وطأة الخرف والتعب من الحياة.

بمضي الوقت، أصبح العمّ رامون أعزّ أصدقائي وموضع أسراري. كان مبتهجًا، مُتسلِّطًا، مكابرًا، ذكوريًّا، وإن أنكر زاعمًا بأنَّه لا أحد يفوقه احترامًا للنساء. لم أستطع يومًا أن أوضح له على وجه الدقَّة ممَّ تتألَّف ذكوريَّته الشديدة. ترك العمّ رامون زوجته، التي أنجب منها أربعة أبناء، ولم يتمكَّن من إبطال زواجه قطّ، الأمر الذي كان سيتيح له تقنين علاقته بأمّي، وإن لم يمنعهما ذلك من العيش معًا سبعين عامًا على وجه التقريب، ممَّا أثار الحفائظ والنمائم في البدء. ولكن، في وقتٍ لاحق، ما عاد يعترض على الرباط الذي جمع بينهما سوى قلائل، إذ باتَت العادات أكثر تهاونًا، وصار الأزواج يرتبطون ويفترقون من دون بيروقراطيَّة، في غياب الطلاق.

كانت پانتشيتا تستاء من عيوب رفيقها بقدر ما تُعجَب بمزاياه. ولقد لعبَت دور الزوجة الخاضعة للسيطرة التي كثيرًا ما تملَّكها الغضب في الحبّ لأنَّها شعرَت بالعجز عن تنشئة أبنائها بمفردها. كانت للإعالة والحماية ثمنٌ لا بدّ منه.

أمَّا أبي الحقيقيّ، فلا افتقدتُه يومًا، ولا شعرتُ بالفضول لمعرفة أخباره. اشترط على پانتشيتا ألَّا يتكفَّل بأبنائه حتى يوافق على إبطال عقد زواجه منها، وتمادى في ذلك إلى حدّ الامتناع عن رؤيتنا. ورد ذكر اسمه في إطار العائلة مرَّات قليلة، مع الأخذ في الاعتبار أنَّه موضوعٌ

(1) أنخيليكا (Angélica): تعني «ملائكيَّة» باللُّغة الإسبانيَّة. (المترجم)

يتجنَّبه الجميع. وفي تلك المرَّات، أصيبَت أمِّي بصداعٍ نصفيٍّ شديد. لم يبلغني عنه سوى إنَّه في غاية الذكاء، وإنَّه كان يحبُّني كثيرًا، ويُسمِعني الموسيقى الكلاسيكيّ، ويُطلِعني على كتب الفنّ، وهكذا بِتُّ قادرةً على التمييز بين الفنَّانين وأنا ما زلتُ في الثانية من العمر. كان يقول لي اسم الفنان مونيه أو رينوار، فأعثر بنفسي على الصفحة المُرادة بدقَّة. غير أنِّي أشكُّ في ذلك، وهو الشيء الذي أعجز عنه الآن، وأنا في كامل قواي العقليَّة. على كلِّ حال، فأنا لا أذكر تلك الأمور التي يُفترَض بها أن تكون قد جرَت وأنا لم أبلغ الثالثة بعد، ولكنَّ هروب أبي المفاجئ قد ترك بصمةً في نفسي. كيف أودع ثقتي بالرجال، أولئك الذين يحبُّونك يومًا، وفي اليوم التالي يختفون عن الأنظار؟

لم يكُن هجران أبي استثناءً. في تشيلي، تُعتبَر المرأة هي عماد الأسرة والمجتمع، ولا سيَّما في الطبقة العاملة، حيث يروح الأب ويغدو، ويختفي عن الأنظار في كثيرٍ من الأحيان، فلا يذكر أبناءه مرَّةً أخرى. بينما الأمّ شجرة جذورها راسخة. تتولَّى مسؤوليَّة أبنائها، وأبناء الآخرين لو دعَت الضرورة. النساء في غاية القوَّة والتَّنظيم، إلى الحدّ الذي جعل الألسنة تقول إنَّ تشيلي نظامٌ أموميّ، كما يُردِّد حتى أكثر الناس بدائيَّةً في غير خجل، وإن كان ذلك شيئًا بعيدًا عن الحقيقة. فالرجال يسيطرون على السلطة السياسيَّة والاقتصاديَّة، ويعلنون القوانين ويطبِّقونها على هواهم، وفوق ذلك تتدخَّل الكنيسة بختمها الأبويّ العرفيّ، وكأنَّ ما سبق لم يكُن كافيًا. أمَّا المرأة فلا تسيطر إلَّا على أسرتها... في بعض الأحيان.

منذ قليل، في واحدةٍ من تلك اللقاءات التي تدفعني إلى التوتُّر، إذ يتخلَّلها وابلٌ من الأسئلة التافهة التي ينبغي الردّ عليها سريعًا، وكأنَّه

اختبارٌ نفسيٌّ شائك، اضطُرِرتُ إلى اتِّخاذ قرارٍ في ثانيتَيْن، واختيار واحدٍ من شخوص رواياتي، أودُّ لو تناولتُ معه العشاء. لو سُئِلتُ من هو الشخص الذي أودُّ أن أتناول معه العشاء، لقلتُ من فوري: پاولا، ابنتي، وپانتشيتا، أمّي، هاتان الروحان اللَّتان تحومان حولي دائمًا، غير أنَّ السؤال في تلك المناسبة كان عن شخصيَّةٍ أدبيَّة. لم يسعني الردّ فورًا، كما طالبني مُحاوِري، لأنَّني كتبتُ ما يربو على العشرين كتابًا، وأودُّ لو تناولتُ العشاء مع أكثر أبطال رواياتي، نساءً ورجالًا. ولكنِّي حين وجدتُ مُتَّسعًا من الوقت للتَّفكير، قرَّرتُ أنَّني أودُّ لو دعوتُ إليسا سوميرز، فتاة رواية ابنة الحظ. عندما ذهبتُ إلى إسبانيا لتقديم الرواية، عام 1999، أخبرني صحافيّ أريب بأنَّ روايتي ترمز إلى النسويَّة. وقد أصاب، مع أنَّني لم أفكِّر في ذلك حقًّا.

في أواسط القرن التاسع عشر، وفي أوج الحقبة الفيكتوريَّة، كانت إليسا سومرز مُراهِقةً حبيسة «الكورسيه»، أسيرة البيت، نصيبها من التعليم قليل، ومن الحقوق أقلّ، قُدِّر لها الزواج والإنجاب. وعلى الرَّغم من ذلك، هجرَت أمان البيت وسافرَت من تشيلي إلى حُمَّى الذهب في كاليفورنيا. للنجاة بحياتها، ارتدَت ثياب رجلٍ وتعلَّمَت الاعتماد على نفسها في أجواء مُفرَطة الذكوريَّة، يُخيِّم عليها الجشع والطموح والعنف. بعد أن ذلَّلت عقباتٍ وأخطارًا لا تُعَدّ ولا تُحصَى، تمكَّنَت من العودة إلى ارتداء ثياب النساء، وإن لم تَعُد يومًا إلى ارتداء «الكورسيه»، فهي قد نالَت حرِّيَّتها، ولن تتنازل عنها.

صحيحٌ أنَّ المقارنة ممكنةٌ بين مسيرة إليسا وبين تحرُّر النساء اللاتي دهمن عالَم الرجال. لقد اضطررنا إلى التحرُّك مثلما يتحرَّكون، والتعلُّم من أساليبهم، ومنافستهم. أذكر تلك الحقبة، عندما كانت

المُوظَّفات الإداريَّات يرتدين السراويل والسترات ويضع بعضهنَّ أربطة العنق في أثناء العمل، حتى يُؤخذن على محمل الجدّ. لم تعُد الضرورة تدعو إلى ذلك، وبات في وسعنا أن نمارس سلطتنا من موقعنا في الأنوثة. مثلما فعلَت إليسا، نلنا حرِّيَّتنا، وما زلنا نكافح من أجل الحفاظ عليها، والتوسُّع فيها، وتعميمها على كلِّ النساء. ذلك ما كنتُ أودُّ أن أحكيه لإليسا، لو أنَّها حضرَت لتناول العشاء برفقتي.

عادةً ما تبثّ النسويَّةُ مشاعر الخوف، إذ تبدو في غاية الراديكاليَّة، أو تُفسَّر على أنَّها كراهيةٌ نحو الرجال، ولذا يجب عليَّ توضيح الأمر لبعض قارئاتي قبل المضيّ قدمًا. فلنبدأ بمصطلح «النظام الأبويّ».

ربَّما اختلف تعريفي لمصطلح «النظام الأبويّ» عن تعريف ويكيبيديا أو قاموس الأكاديميَّة الملكيَّة قليلًا. في الأصل، كان يعني التفوُّق المُطلَق للرجل على المرأة وعلى سائر الأنواع في الطبيعة، ولكن الحراك النسويّ قوَّضَ تلك السلطة المطلقة في بعض الجوانب، وإن استمرَّت في جوانب أخرى كما كانت منذ آلاف الأعوام. وبرغم تغيير الكثير من القوانين التمييزيَّة، فما زال النظام الأبويّ هو نظام القمع السَّائد في السياسة والاقتصاد والثقافة والدين، الذي يمنح الهيمنة والمزايا لجنس الذكور. وإلى جانب كره النساء، يشتمل ذلك النظام على مختلف أشكال الإقصاء والعدوان: العنصريَّة، ورهاب المثليَّة، والطبقيَّة، ورهاب الأجانب، والتعصُّب ضدّ الأفكار الأخرى والأشخاص المختلفين. يفرض النظام الأبويّ هيمنته عن طريق العدوان، ويطالب بالطاعة، ويعاقب أولئك الذين يجترؤون على الوقوف في وجهه.

وممَّ تتألَّف النسويَّة عندي؟ لا تكمن النسويَّة بين أفخاذنا، وإنَّما بين آذاننا. إنَّه موقفٌ فلسفيٌّ وتمرُّدٌ على سلطة الرجل. إنَّها طريقةٌ تسعى إلى فهم العلاقات الإنسانيَّة ورؤية العالَم، رهانٌ على العدالة، كفاحٌ من أجل تحرُّر المرأة والمثليِّين والمثليَّات وأحرار الجنس (LGTBIQ+)، جميع المقموعين على يد النظام، وباقي الراغبين في الانضمام إليهم. «أهلًا ومرحبًا بكم»، فكلَّما زدنا عددًا كان ذلك أفضل، حسبما يقول شباب اليوم.

في شبابي، كافحتُ من أجل المساواة، وأردتُ المشاركة في لعبة الرجال، ولكنِّي فهمتُ في طور النضج أنَّ تلك اللعبة جنونٌ في سبيله إلى تدمير الكوكب ونسيج البشريَّة الأخلاقيّ. لسنا بصدد تكرار الكارثة، وإنَّما علاجها. وبطبيعة الحال، يواجه ذلك الحراك قوى رجعيَّة ذات سطوة، على غرار الأصوليَّة والفاشية والتقاليد وغيرها الكثير. يُحزنني التأكُّد من وجود عددٍ كبيرٍ جدًّا من النساء في صفوف تلك القوى المُعارِضة، نساءٍ خائفات من التغيير، عاجزات عن تخيُّل مستقبلٍ مختلف.

النظام الأبويّ مُتحجِّر. أمَّا النسويَّة، فمثلها كمثل المحيط، انسيابيَّة، قويَّة، عميقة، مُعقَّدة إلى ما لا نهاية كالحياة، تنساب في موجات، وتيَّارات، ومدّ، وجذر، وأحيانًا في عواصف عاتية. النسويَّة كالمحيط، لا تسكت.

«كلَّا، بالصمتِ لن تزيدي جمالًا.
رائعةٌ أنتِ متى كافحتِ،
متى حاربتِ في سبيل ما هو لكِ،
متى أبيتِ أن تصمتي،
متى صارَت لكلماتكِ أنيابٌ تعضّ بها،

متى فتحتِ فمكِ،
واحترق كلّ شيءٍ من حولكِ.

كلَّا، بالصمتِ لن تزيدي جمالًا،
بل إنَّ الصمتَ يزيدكِ موتًا.
لو كنتُ أعلم عنكِ شيئًا،
فأنا أعلم أنَّني لم أرَ أحدًا،
في أيِّ وقتٍ مضى،
يرغب في الحياة مثلما ترغبين.
صراخًا».

ميغيل غاني،
«توهَّجي»

مكتبة
t.me/soramnqraa

منذ الطفولة، وضعتُ في اعتباري أنَّ واجبي يملي عليَّ الاعتناء بأمِّي، والاعتماد على ذاتي في أقرب وقتٍ ممكن. ولقد رسَّخَت ذلك الشيء رسالةُ جدَّي، مع الأخذ في الحسبان أنَّه قد تفهَّم الإجحاف الذي ينطوي عليه كوني امرأة، وأراد أن يعطيني الأسلحة اللَّازمة لئلَّا أُضطَرَّ إلى الاعتماد على أحدٍ ما حييت، مع أنَّه بطريرك العائلة الذي لا يرقى إليه شكّ. أمضيتُ الأعوام الثمانية الأولى من حياتي تحت وصايته، ثمَّ عشتُ معه مرَّةً أخرى وأنا في السادسة عشرة من العمر، حين أرسلنا العمُّ رامون أنا وشقيقَيّ إلى تشيلي من جديد. كُنَّا نعيش في لبنان، حيث تولَّى العمّ رامون منصب القنصل. وعند ذاك، لاحَت أزمة سياسيَّةٌ ودينيَّةٌ عامَ 1958، مُنذِرةً بإغراق البلد في حربٍ أهليَّة. التحق أخواي بمدرسةٍ عسكريَّةٍ في سانتياغو، بينما نزلتُ أنا في بيت جدِّي.

بدأ جدّي أغوستين في العمل منذ الرابعة عشرة من العمر، إثر وفاة أبيه الذي ترك الأسرة معدمة. كانت الحياة في نظره مُؤلَّفةً من الانضباط والجهد والمسؤوليَّة. كان مرفوع الرأس: فالكرامة تأتي في المقام الأوَّل. ولقد كبرتُ في مدرسته الرواقيَّة[1]، التي تقضي بالتحمُّل، وأداء الواجب، والاعتماد على الذات، ومساعدة الآخرين وخدمتهم من دون تبجُّح، وتجنُّب أيَّ شكلٍ من أشكال التباهي والتبذير والشكوى، والامتناع عن طلب أيِّ شيءٍ أو انتظاره.

سمعتُ منه القصَّة الآتية في أكثر من مناسبة: في مرَّةٍ من المرَّات، كان لأحد الرجال ابنٌ وحيد، أحبَّه الأب من كلّ روحه. وحين أتمَّ الفتى اثني عشر عامًا، طلب منه الأب أن يلقي بنفسه من شرفة الطابق الثاني بلا خوف، لأنَّه سوف يتلقَّاه بالأسفل. فكان أن امتثل الابن، ولكنَّ الأب عقد ذراعَيْه، وترك الفتى يرتطم بأرض الفناء، ويُصاب بكسورٍ في عدد من عظام جسده. أمَّا العبرة من تلك الحكاية القاسية، فمُؤدَّاها أنَّه لا يجب على المرء الوثوق بأحد، ولا حتى بالأب.

على الرَّغم من جموده، أحبّ الناس جدِّي كثيرًا، لأنَّه كان سخيًّا، يخدم الآخرين من دون شرط. كنتُ مُتيَّمةً به. أذكر شعره الأبيض، وضحكته الرنَّانة التي تشفّ عن أسنانه الصفر، ويدَيْه المعقوفتَيْن بفعل التهاب المفاصل، وحسّ الدعابة الشقيّ الذي تميَّز به، زدْ على ذلك أنَّني كنتُ حفيدته الأثيرة، تلك الحقيقة الدامغة التي لم يعترف بها قطّ. لا شكّ أنَّه تمنَّى لو كنتُ ذكرًا، غير أنَّه سلَّم أمره وأحبَّني على الرَّغم من جنسي، لأنَّني كنتُ أذكِّره بزوجته، الجدّة إيزابيل، التي ورثتُ عنها الاسم وتعبيرات العينَيْن.

(1) الرواقيَّة: إحدى مدارس الفلسفة الهلنستيَّة. تأسَّست على يد الفيلسوف زينون (334 ـ 262 ق.م.). (المترجم)

في طور المراهقة، بدا من الواضح أنَّني لا أنسجم في أيِّ مكان، فاضطُرّ جدِّي المسكين إلى التعامل معي. ليس الأمر أنَّني كنتُ خاملةً أو جريئة، بالعكس، كنتُ طالبةً مجتهدةً تراعي قواعد التعايش بلا شكوى، وإن عشتُ مستغرقةً في حالةٍ من الغضب المكتوم، الذي لم يتجلَّ على شكل نوبات الهياج أو صفق الأبواب، وإنَّما تجلَّى في صمتٍ أبديٍّ لائم. كانت أنشوطةً من العُقَد: إذ شعرتُ بأنِّي دميمة، عاجزة، خفية، أسيرةُ حاضرٍ بليد، وفي غاية الوحدة. لم أنتمِ إلى مجموعةٍ واحدة، وشعرتُ بأنِّي مختلفة، مُستثنَاة. كنتُ أصارع العزلة بالقراءة النهمة، وكتابة الرسائل كلّ يوم إلى أمِّي التي ذهبَت من لبنان إلى تركيا. حتى هي كانت تراسلني على فتراتٍ متقاربةٍ للغاية، ولم نكترث لاستغراق الرسائل عدَّة أسابيع في الوصول. وهكذا بدأت المراسلة التي حافظنا عليها طوال الوقت.

منذ صغري، كنتُ على وعيٍ بيِّنٍ بالظلم في العالَم. أذكر أنَّ عاملات المنزل في طفولتي كُنَّ يعملن من مشرق الشمس إلى مغربها، ويخرجن قليلًا جدًّا، ويربحن أجرًا بائسًا، وينمن في زنازين بلا نوافذ، لا تحوي من قطع الأثاث إلَّا فراشًا صغيرًا وخزانةً مُشقَّقة. (كانت تلك حقبة الأربعينيَّات والخمسينيَّات، ولم تعُد الحال هكذا في تشيلي، بطبيعة الحال). في طور المراهقة، اشتدَّ لهفي للعدالة إلى الحدّ الذي جعلني أنادي بالاشتراكيَّة والنسويَّة بينما كانت باقي الفتيات منشغلات بالاعتناء بالمظاهر والإيقاع بالعشَّاق. لم تكُن لي صديقات لسببٍ وجيه. شعرتُ بالسخط من التفاوت بين الطبقات الاجتماعيَّة والفرص والعائدات، ذلك التفاوت الذي بلغ حدًّا هائلًا في تشيلي.

إنَّ شرّ صنوف التمييز هو ذلك الذي يُمارَس ضدّ الفقراء ـ ولطالما كان كذلك ـ، غير أنَّ التمييز الذي ناءَت به النساء كان أثقل حملًا

على عاتقي، إذ بدا لي أنَّ الهروب من الفقر مُمكنٌ في بعض الأحيان، أمَّا هروب المرء من الوضع الذي يحتِّمه عليه جنسه فلا. آنذاك، لم يكُن أحدٌ يحلم بإمكانيَّة التحوُّل من جنسٍ إلى آخر. لطالما كانت لدينا مناضلات نجحن في الحصول على حقّ المرأة في التصويت وغير ذلك من الحقوق، كما أدخلن تحسينات على التَّعليم وشاركن في مجالات السياسة والصحَّة العامة والعلوم والفنون. وعلى الرَّغم من ذلك، فما زالت سنوات ضوئيَّة تفصل بيننا وبين الحركات النسويَّة في أوروبا والولايات المتَّحدة. في محيطي، ما كان أحدٌ يتطرَّق إلى وضع المرأة، لا في بيتي ولا في المدرسة ولا في الصحافة. ولذا فأنا لا أدري من أين اكتسبتُ الوعي في تلك الحقبة.

اسمحوا لي بالاستطراد قليلًا في حديثي عن التفاوت. حتى العام 2019، كانت تشيلي تُعَدّ واحة أميركا اللاتينيَّة، لأنَّها بلدٌ مُزدهِرٌ مُستقِرٌّ في قارةٍ زلزلَتها هزَّات السياسة والعنف. في الثامن عشر من أكتوبر من العام نفسه، خيَّمَت المفاجأة على تشيلي والعالَم حين تفجَّر الغضب الشعبيّ. حتى الأرقام الاقتصاديَّة المتفائلة لم تُظهِر توزيع الموارد ولا الحقيقة القائلة بأنَّ البلد يشهد واحدًا من أعلى مُعدَّلات التفاوت في العالَم. مع الأخذ في الاعتبار بأنَّ النموذج الاقتصاديّ النيوليبراليّ المُتطرِّف الذي فرضَته ديكتاتوريَّة الجنرال بينوتشيه في السبعينيَّات والثمانينيَّات كاد يُخصِّص كلّ شيء، بما في ذلك الخدمات الأساسيَّة، مثل مياه الشرب، وأعطى لرأس المال حرِّيَّة التَّصرف المطلقة، في حين تعرَّضَت القوى العاملة لقمعٍ شديد. فنتج عن ذلك ازدهارٌ اقتصاديٌّ استمرّ حينًا، وسمح لقلةٍ قليلةٍ بجمع ثروةٍ فاحشة، أمَّا باقي الشعب فينجو

بمشقَّة، عن طريق الاستدانة. صحيحٌ أنَّ مُعدَّلات الفقر قد انخفضَت إلى ما دون العشرة في المئة، ولكن الرقم المذكور لا يكشف الفقر المُستتِر واسع الانتشار، ذلك الذي تعاني منه الطبقة المُتوسِّطة الدنيا، والطبقة العاملة، والمُتقاعِدين ممَّن يتلقَّون معاشاتٍ بائسة. وهكذا راح السخط يتراكم طوال ما يربو على الثلاثين عامًا.

في الأشهر التي أعقبَت أكتوبر من عام 2019، خرج الملايين إلى الشوارع في مظاهراتٍ عمَّت جميع المدن المهمَّة، كانت سلميَّةً في أوَّل الأمر، ولكن سرعان ما اندلعَت أعمال التخريب، فردَّت الشرطة بوحشيَّةٍ لم يُشهَد لها مثيلٌ منذ عهد الديكتاتوريَّة.

خلَت حركة الاحتجاجات من القادة الظاهرين، ولم تجمعها بالأحزاب السياسيَّة أيّ صلة، بل انضمَّت إليها قطاعات شتَّى، لها ما لها من المطالب، بدءًا بالشعوب الأصليَّة وصولًا إلى الطلَّاب والنقابات والمدارس الحِرَفيَّة... إلى آخره، علاوةً على المجموعات النسويَّة، بطبيعة الحال.

«**سوف** تُقابَلين بعدوانٍ شديد، وتدفعين ثمنًا فادحًا، بسبب أفكارك»، هكذا حذَّرَتني أمِّي، في قلق. ما كنتُ لأجد زوجًا قطّ بشخصيَّتي هذه، ولا أسوأ من حظِّ المرأة العانس، تلك الوصمة التي تعلق بالواحدة ابتداءً من عمر الخامسة والعشرين على وجه التقريب. ولذا كان يجب عليَّ الاستعجال. كُنَّا نسعى جاهدين إلى الإيقاع بالخطيب في حبائلنا، والزواج على عجل، قبل أن تقتنص أفضلَ الغنائم فتيات أخريات، أوفر حظًّا من المهارة. «حتى أنا فاض بي الكيل من الذكوريَّة يا إيزابيل. ولكن، ماذا نحن فاعلات! هكذا هو العالَم، ولطالما كان على ذلك الحال»، كما قالت پانتشيتا. كنتُ قارئةً جيِّدة، وتعلَّمتُ من الكتب أنَّ العالَم في تغيُّرٍ

مُستمِرّ، والبشريَّة في تطوُّر، غير أنَّ التغيُّرات لا تأتي من تلقاء نفسها، بل يخوض المرء حربًا شعواء في سبيل تحقيقها.

مُتلهِّفة أنا. الآن أدركتُ أنَّني كنتُ أحاول حقن والدتي بجرعاتٍ من النسويَّة رغمًا عنها، ولم أضع في الحسبان أنَّها آتيةٌ من زمنٍ غير الزمن. أنتمي إلى الجيل الانتقالي، بين أمّهاتنا وبناتنا وحفيداتنا، ذلك الجيل الذي تخيَّل أهمّ ثورةٍ في القرن العشرين، ودفعها إلى الأمام. ربَّما أمكن الزعم بأنَّ الثورة الروسيَّة التي اندلعَت عام 1917 كانت هي الأبرز، ولكن ثورة النسويَّة أشدّ عمقًا وأطول عمرًا، تركَت أثرًا في نصف البشريَّة، وامتدَّت حتى شملَت الملايين والملايين من الأشخاص، ولمسَتهم، بل إنَّها تُعَدّ هي الأمل الأكثر رسوخًا في إمكانيَّة استبدال حضارةٍ أخرى أكثر تطوُّرًا بهذه الحضارة التي نعيش فيها. كان الأمر يُذهِل أمِّي ويُروِّعها في آن، وهي التي تربَّت على مُسلَّمةٍ أخرى من مُسلَّمات جدّي أغوستين: «السيِّئ المعروف خيرٌ من الجيِّد المجهول».

لعلَّني تركتُ في نفوسكم انطباعًا بأنَّ أمِّي كانت واحدةً من ربَّات الأسر التقليديَّات المعهودات في محيطها الاجتماعيّ وجيلها. لم تكُن كذلك. بل إنَّ پانتشيتا هربَت من القالب المُعتاد للسيِّدات في محيطها. ولو أنَّها خافَت عليَّ، فهي لم تفعل مدفوعةً بالرجعيَّة أو تكلُّف الحياء، وإنَّما بالتجربة الشخصيَّة التي خاضتها، وبحبِّها الجارف نحوي. وأنا موقنةٌ أنَّها قد غرسَت في نفسي بذرة التمرُّد وهي لا تدري. الفارق بيننا أنَّها لم تستطِع أن تعيش الحياة التي كانت تُفضِّلها ـ في الحقل، مُحاطَةً بالحيوانات، بينما هي ترسم وتتنزَّه فوق التلال ـ وإنَّما أذعنَت لرغبات زوجها، الذي كان يُقرِّر وجهته الدبلوماسيَّة، من دون الرجوع إليها في بعض الأحيان، ويفرض عليها نمط حياةٍ حضريٍّ جماعيّ. عاشا علاقة

حبٌّ دامَت طويلًا، وإن شابَتها الخلافات، لأنَّ عمله كان يتطلَّب منه أشياء لا تلائم حساسيَّتها، وغير ذلك من الأسباب. أمَّا أنا، فاستقللتُ بذاتي منذ كنتُ في ريعان الشباب.

وُلِدَت پانتشيتا قبلي بعشرين عامًا، فلم يسعفها الوقت لتلحق بموجة النسويَّة. ولكنَّها أدركَت المفهوم، بل أعتقد بأنَّها كانت ترغب في ذلك لنفسها، نظريًّا على الأقل، ولكنَّ الأمر كان يتطلَّب جهدًا أكبر ممَّا ينبغي. إذ بدَت لها النسويَّة يوتوبيا محفوفةً بالأخطار، من شأنها أن تُدمِّرني في خاتمة المطاف. وكان لا بدّ أن يمرّ نحو أربعين عامًا كي تفهم أنَّ النسويَّة لم تُدمِّرني على الإطلاق، وإنَّما شكَّلَتني وسمحَت لي بتحقيق كلّ ما عزمتُ عليه تقريبًا. وعن طريقي، تمكَّنَت پانتشيتا من تحقيق بعض أحلامها.

كثيرات هنَّ البنات اللاتي قُدِّر لهنَّ أن يعِشنَ الحياة التي لم تتمكَّن أمَّهاتنا من عيشها.

خلال واحدٍ من أحاديثنا الطويلة، في طور النضج، بعد صراعاتٍ كثيرة، وبعض الإخفاقات والانتصارات، قلتُ لپانتشيتا إنَّني قد احتملتُ من العدوان الكثير، كما سبق وحذَّرَتني. ولكنّي، عن كلِّ ضربةٍ تلقَّيتُها، استطعتُ أن أسدِّد ضربتَيْن. ما كنت لأتمكَّن من العيش بطريقةٍ أخرى، لأنَّ غضب الطفولة أبَى إلَّا أن يتفاقم بمضي الزمن. لم أتقبَّل يومًا ذلك الدور الأنثويّ المحدود الذي عهدَت إليَّ به الأسرة والمجتمع والثقافة والديانة. في الخامسة عشرة من العمر، نأيتُ بنفسي عن الكنيسة إلى الأبد، لا مدفوعةً بعدم الإيمان بالرَّب ـ الشيء الذي أتى في وقتٍ لاحق ـ وإنَّما بسبب الذكوريَّة المُتأصِّلة في كلِّ تنظيمٍ دينيّ. لا يسعني

الانتساب لمُؤسَّسةٍ تعدِّني شخصًا من الدرجة الثانية، مُؤسَّسة حيث أصحاب السلطة ـ الذين هم من الرجال دائمًا ـ يفرضون قواعدهم بقوَّة العقيدة المُسلَّم بها، ويتمتَّعون بالحصانة.

عرَّفتُ نفسي على أنَّني امرأة بطريقتي أنا، وبشروطي أنا، في حين رحتُ أتلمَّس طريقي على عمًى. لم يكُن شيءٌ واضحًا، لأنَّني لم أجد نماذج أقتدي بها حتى وقتٍ لاحق، عندما بدأتُ في العمل صحافيَّةً. لم تكُن قرارات واعية أو عقلانيَّة، بل إنَّني سرتُ على هدى اندفاعةٍ عصيَّةٍ على السيطرة. «ماما، إنَّ ما دفعتُه مقابل الحياة النسويَّة يُعَدّ صفقةً رابحةً بحقّ. ولو اضطُرِرت، لدفعته مُجدَّدًا، مضاعفًا ألف مرَّة»، أكَّدتُ لها.

في لحظةٍ بعيْنها، تعذَّر عليَّ كتمان أفكاري أمام جدِّي، وإذا بي أتلقَّى مفاجأة. فذلك العجوز المُكابِر، ذو الأصول الباسكيَّة، الكاثوليكيّ، الرجعيّ، العنيد، الرائع، ذلك النبيل الأصيل، الذي كان يسحب المقاعد لتتفضَّل السيِّدات بالجلوس، ويفتح لهنَّ الأبواب، قد ثارَت حفيظته بسبب نظريَّات حفيدته الطائشة، ولكنَّه على الأقلّ أبدى استعدادًا لسماعها، ما دامَت لا ترفع صوتها، فعلى الآنسة أن تتحلَّى بالسلوك الحسن والآداب. وذلك أكثر ممَّا يتوقَّعه المرء منه، وأكثر ممَّا حصلتُ عليه من العمّ رامون، الذي كان ينتمي إلى جيلٍ أصغر، وإن لم يُبدِ أدنى اهتمامٍ بأمورٍ أصابَت فتاةً صغيرةً بالهوس، دع عنك أن يُبدِي اهتمامًا بالنسويَّة.

كان عالَم العمّ رامون مثاليًّا، فهو يشغل موقعًا مُميَّزًا على المجثم العلويّ في قِنّ الدجاج، وليس مُضطَرًّا إلى التشكيك في القواعد. تعلَّم في مدرسة اليسوعيِّين، وما كان يستهويه شيءٌ بقدر ما تستهويه المناقشة الجيِّدة: الدفع بالحجَّة، والتفنيد، والإقناع، والفوز... أيُّ لذَّة!

كان يناقشني في كلِّ شيء، بدءًا بالمصائب التي حلَّت بأيّوب، الوارد ذكره في الكتاب المُقدَّس، ذلك الرجل الذي جرَّبه الرَّب والشيطان، (فاعتبره العمُّ بليدًا، ورأيتُه أنا قدِّيسًا)، وصولًا إلى نابليون (الذي شعر نحوه بالإعجاب، في حين ضقتُ به ذرعًا). في النهاية، كان يُجرِّعني المذلَّة كلّ مرَّة، إذ لم يكُن مِن سبيلٍ واحدٍ لهزيمته في تلك المبارزة الفكريَّة التي تعلَّمها في مدرسة اليسوعيِّين. كانت مسألةُ الذكوريَّة تبثّ في نفسه الضجر، ولذا لم نتطرَّق إليها.

ذات مرَّة، في لبنان، حكيت للعمّ رامون عن شاميلا، الفتاة الباكستانيَّة المُلتحِقة بمدرستي الداخليَّة، تلك التي كانت تجهش بالبكاء لأنَّها مُضطَرَّةٌ إلى الذهاب لأسرتها في الإجازة. كانت في تلك المدرسة الإنجليزيَّة بنات بروتستانتيَّات وكاثوليكيَّات ومارونيَّات ويهوديَّات وعدد من المُسلِمات، مثل شاميلا. حكَت لي أنَّ والدتها قد توفِّيَت، فأرسلها والدها إلى مدرسةٍ داخليَّةٍ بعيدًا عن بلدها، لأنَّها ابنته الوحيدة، وكان يخشى عليها من «العطب»، لأنَّ زلَّة الابنة وصمة عارٍ على جبين الأسرة، لا يُمحَى إلَّا بالدم. كانت عذريَّتها أعظم قيمةً من حياتها.

وحين وصلَت شاميلا إلى بيتها، تحت مراقبة المُربِّية، هال أباها ما رأى من عاداتٍ غربيةٍ اكتسبَتها ابنته في المدرسة الداخليَّة، وهو الرجل المغرق في التقليديَّة. لأنَّ الفتاة المحتشمة الطاهرة تستر نفسها، ويُحرَّم عليها النظر إلى العيون، والخروج وحدها إلى أيِّ مكان، والاستماع إلى الموسيقى، والقراءة، والاتِّصال المباشر بشخصٍ من الجنس الآخر، فهي ملكيَّةٌ تخصّ أباها. أمَّا شاميلا، التي كانت في الرابعة عشرة من العمر آنذاك، فتجرَّأت على التشكيك في قرار عقد

زواجها على رجلٍ يكبرها بثلاثين عامًا، تاجر لم ترَه قطّ. وهكذا تلقّت ضربًا مبرحًا، وحُبِسَت طوال الإجازة التي استمرَّت شهرَيْن. تكرَّر الضرب حتى انكسرَت إرادتها.

عادَت صديقتي إلى المدرسة هزيلة، خرساء، والهالات السود تحيط بعينَيْها، عادَت لتتسلَّم شهادتها وتلملم حوائجها، وإذا هي ظلُّ الفتاة التي كانت. عند ذاك، لجأتُ إلى العمّ رامون، لأنّي فكَّرت بضرورة هروب شاميلا وتقدُّمها بطلب اللُّجوء في قنصليَّة تشيلي كي تفلت من مصيرها. «ذلك غير مُمكن بأيِّ حالٍ من الأحوال. لكِ أن تتخيَّلي المشكلة الدوليَّة التي قد تُثار لو اتُّهِمتُ بإبعاد فتاة قاصر عن وصاية أسرتها، الأمر الذي يضاهي الاختطاف. يحزنني وضع صديقتك. ولكن، لا يمكنكِ مساعدتها. كوني مُمتنَّةً لأنكِ لا تعيشين في ذلك الواقع»، هكذا قال لي، ثمَّ استمرَّ في محاولة إقناعي بتبنِّي قضيَّةٍ أقل طموحًا من تغيير الثقافة التي سادَت باكستان على مدى قرون.

ولأنَّ الشيء بالشيء يُذكَر، فالزواج المُبكِّر الإجباريّ ما زال يُعمَل به في بلدانٍ كاليمن وباكستان والهند وأفغانستان وبعض البلدان الإفريقيَّة، في المناطق الريفيَّة بوجه العموم، الأمر الذي يحدث في أوروبا بين المهاجرين، وفي الولايات المتَّحدة بين جماعاتٍ دينيَّةٍ بعيْنها، مما يجرّ على البنات عواقب وخيمة بدنيًّا ونفسيًّا. ولقد كرَّسَت الناشطة ستيفاني سنكلير جزءًا كبيرًا من حياتها لتوثيق الأمر من خلال الصور الفوتوغرافيَّة التي تلتقطها لبناتٍ تزوَّجن قسرًا برجالٍ في عمر آبائهنَّ أو أجدادهنَّ، وأخريَّات صرن أمَّهات وهن في سنّ البلوغ، وأجسادهنَّ لم تستعدّ للحمل والأمومة بعد. (لكم أن تشاهدوا أعمالها على الرابط التالي: https://stephaniesinclair.com/).

طبقًا لِما ذهب إليه جدِّي، فالعلاقة بين الزوجَيْن بسيطة: الرجل يحكم ويُوفِّر المؤونة والحماية، أمَّا المرأة فتقدِّم الخدمة والرعاية والطاعة. وللسَّبب نفسه، زعم بأنَّ الزواج يلائم الرجال كثيرًا، ولكنَّه صفقةٌ خاسرةٌ للمرأة. سبق جدِّي عصره. ولقد ثبت في الوقت الراهن أنَّ المجموعتَيْن الأوفر حظًّا من السعادة هم الرجال المُتزوِّجون والنساء العازبات. يومَ زفَّ پانتشيتا إلى زوجها، وبينما هو ماضٍ بها نحو المذبح، وذراعه في ذراعها، طلب منها للمرَّة الألف ألَّا تتزوَّج، وقال إنَّه ما زال أمامها مُتَّسعٌ من الوقت كي تدور على عقبَيْها، وتهجر خطيبها، وتصرف الضيوف بأدب. ثمَّ قال لي الشيء نفسه بعد عقدَيْن من الزمان، عندما تزوَّجت.

وعلى الرَّغم من طرحه مسألة الزواج بطريقةٍ مغاليةٍ في الراديكاليَّة، كان جدِّي تقليديًّا جدًّا في ما يتعلَّق بالأنوثة. مَن يُقرِّر ما تفرضه التقاليد والثقافة؟ الرجال، طبعًا، أمَّا النساء فيتقبَّلن من دون جدال. طبقًا لما ذهب إليه جدِّي، فلا بدَّ أن تكون المرأة «سنيوره» في جميع الأحوال. والأمر لا يستحقّ عناء الاستفاضة في تفسير معنى كلمة «سنيوره» في إطار عائلتي، لأنَّه شيءٌ مُعقَّد. يكفي القول بأنَّ النموذج الأسمى قد يكون إليزابيث ملكة إنجلترا المُبجَّلة، الكتوم، الودود، التي كانت في ريعان الشباب خلال الستينيَّات، وعلى الرَّغم من ذلك، كانت تسلك سلوكًا لا عيب فيه، كما فعلَت طوال عمرها المديد. أو هكذا تظهر في العلن، على الأقل. رأى جدِّي العجوز أنَّ بوح النساء برأيهنَّ لا يليق ـ ولا سيَّما النساء في مثل عمري ـ فربما كان ذلك الرأي لا يهمّ أحدًا. وتلك هي الفئة التي اندرج تحتها رأيي في النسويَّة.

بطريقةٍ ما، أفلحتُ في حمله على قراءة الجنس الآخر، لسيمون دو بوڤوار، ومقالاتٍ كنتُ أتناساها في بيته، فيتصنَّع الجهل بأمرها، وإن

تصفَّحها خلسةً. كان تبشيري بالنسويَّة يدفعه إلى التوتُّر. وعلى الرَّغم من ذلك، فلقد احتمل القذائف التي كنتُ أمطره بها حين أخبره بأنَّنا، نحن النساء، نعاني معاناةً مضاعفةً بسبب الفقر وغياب الصحة والتعليم والإتجار بالبشر والحرب والكوارث الطبيعيَّة وانتهاك حقوق الإنسان. «من أين تستقين تلك المعلومات؟»، كان يسألني، مرتابًا. صراحةً لا أدري، لأنَّ مصادري كانت شحيحة، وغوغل لن يُخترَع قبل مضي أربعين عامًا.

«إيزابيل، لا تُغضِبي الجدّ والعمّ رامون»، كانت أمّي تطلب منّي. «يمكن عمل كلّ شيءٍ بلباقةٍ ومن دون صخب». ولكن لا نسويَّة من دون صخب، كما تأكَّد لنا في وقتٍ لاحق.

عملتُ أول ما عملت سكرتيرةً، إذ تولَّيتُ مهمَّة نسخ الإحصاءات المُتعلِّقة بالغابة، وأنا في السابعة عشرة من العمر. وبراتبي الأوَّل اقتنيت قرطًا من اللؤلؤ لأمّي، ثمَّ بدأت أدَّخر النقود من أجل الزواج، لأنَّني قد أوقعتُ بحبيبٍ عن طريق المصادفة، على الرَّغم من التنبّؤات. كان ميغيل طالب هندسة، فارع القوام، خجولًا، نصف أجنبيّ، وُلِد لأمٍّ إنجليزيَّة، وجدٍّ ألمانيّ. التحق بمدرسةٍ داخليَّةٍ إنجليزيَّةٍ منذ السابعة. وعلى وقع ضربات الخيزران، لُقِّن في المدرسة حبّ بريطانيا العظمى والفضائل الفيكتوريَّة التي كانت قليلة النفع في تشيلي.

تشبَّثتُ به في يأس، لأنَّه كان رجلًا طيِّبًا بحقّ، وأنا رومانسيَّة. وقعتُ في غرامه، وشعرتُ بالخوف من البقاء عانسًا، في تناقضٍ صريحٍ بين ذلك وبين عظاتي النسويَّة. كنتُ في العشرين من العمر حين تزوَّجنا. تنفَّسَت أمّي الصعداء، وتوجَّه جدّي إلى خطيبي مُحذِّرًا من المشكلات الكثيرة التي سوف يواجهها معي، ما لم يفلح

في ترويضي كما تُروَّض الخيل، في حين سألني بنبرةٍ ساخرةٍ عمَّا إذا كنتُ أفكِّر حقًّا في مراعاة نذور الوفاء والاحترام والطاعة حتى يُفرِّق بيننا الموت.

أنجبتُ أنا وميغيل طفلَيْن، هما پاولا ونيكولاس. ولقد بذلتُ جهدًا كبيرًا حتى أقوم بدور الزوجة والأم. لم أودّ الاعتراف بأنَّني أكاد أموت من فرط السأم، ودماغي يكاد يصبح مائعًا كالحساء. كنتُ أفرض على نفسي ألف مهمَّة، وأهرول من مكانٍ إلى آخر كالفأر المسموم كيلا أُفرِط في التَّفكير. أحببتُ زوجي، وأذكر الأعوام الأولى من حياة ابني وابنتي على أنَّها حقبةٌ سعيدة، وإن شبَّ في داخلي حريقٌ من فرط اللهف.

تبدَّل حالي تمامًا في عام 1967، عندما التحقتُ بالعمل صحافيَّةً في پاولا، المجلَّة الأنثويَّة/النسويَّة التي ظهرَت في الأسواق حديثًا. جديرٌ بالذكر أنَّ اسم المجلَّة لا يمتّ لابنتي بصلة، إذ كان پاولا واحدًا من تلك الأسماء التي راجَت فجأة. تولَّت رئاسة التَّحرير ديليا بيرغارا، الصحافيَّة الشابة رائعة الجمال، التي عاشَت في أوروبا زمنًا، وكانت تملك رؤيةً في غاية الوضوح للمنشور الذي ترغب في إصداره. ومع الأخذ بذلك في الاعتبار، شكَّلَت فريقها الصغير. ولقد أنقذَتني تلك المجلَّة من الموت اختناقًا تحت وطأة الإحباط.

كُنَّا أربع نساءٍ في أواخر العشرينيَّات، على أهبَّةٍ لزلزلة الرياء التشيليّ. عشنا في بلدٍ محافظٍ على الصعيد الاجتماعيّ، بعقليَّةٍ تليق بالأقاليم، حيث لم تتبدَّل العادات كثيرًا منذ القرن الماضي. ورحنا نفتِّش عن الإلهام في مجلَّات أوروبا والولايات المُتَّحدة وكتبها. قرأنا سيلفيا بلاث وبيتي فريدان، ثمَّ جيرمين غرير وكيت ميليت

وغيرهنَّ من الكاتبات اللاتي ساعدننا على ضبط الأفكار والتعبير عنها بطلاقة.

وقع اختياري على حسّ الدعابة، لأنَّني سرعان ما أدركتُ أن الأفكار الأكثر جرأة تلقى قبولًا ما دامَت ترسم البسمة على الشفاه. وهكذا وُلِد عمود «هذِّبي رجلكِ البدائيّ»، الذي كان يستهزئ بالذكوريَّة، ومن سخريَّة القدر أنَّه حقَّق شعبيَّةً كبيرةً وسط الرجال. «عندي صديقٌ يشبه رجلكِ البدائيّ»، كانوا يقولون لي. ويزعمون بأنَّه صديقٌ في كلِّ مرَّة. في حين شعر عددٌ من القارئات بالتَّهديد، لأنَّ ذلك العمود يضرب أساسات العالَم المنزليّ الذي يعشن فيه.

شعرتُ بالرضى عن نفسي لأوَّل مرَّة. لم أكُن مهووسةً وحيدة، بل إنَّني كنتُ أشاطر ملايين النساء لهفًا واحدًا. على الجانب الآخر من سلسلة جبال الأنديز، انطلق حراكٌ يدعو إلى تحرير المرأة، فسعَت مجلَّتنا إلى نشره في تشيلي.

ومن أولئك المُفكِّرات الأجنبيَّات اللَّاتي قرأنا كتبهنَّ، تعلَّمتُ أنَّ الغضب من دون هدفٍ لا يُجدِي نفعًا، بل إنَّه مُضِرّ. ولذا فالتحرُّك واجبٌ عليَّ، ما دمتُ أسعى إلى تغيير الأوضاع. ولقد منحَتني مجلَّة باولا الفرصة كي أجعل من القلق العارم الذي شقيتُ به منذ الطفولة أفعالًا.

كنتُ قادرةً على الكتابة! شعرنا برغبةٍ في كسر مئات المحظورات على صفحات المجلَّة، تلك المحظورات التي تمسّ المرأة على نحوٍ مباشر: كالجنس والمال والقوانين التمييزيَّة والمخدّرات والعذريَّة وسنّ اليأس ووسائل منع الحمل وإدمان الكحول والإجهاض والدعارة والغيرة إلى آخره. رحنا نُشكِّك في مفاهيم مُقدَّسة، مثل الأمومة، مع الأخذ في الاعتبار أنَّها تتطلَّب التضحية والتفاني من فردٍ واحدٍ من أفراد الأسرة،

وكشفنا عن أسرارٍ كالعنف المنزليّ وخيانة الأنثى، التي ما كان يدور عنها الحديث قطّ، لأنَّ «الخيانة تقتصر على الذكور»، وإن كانت معادلةٌ حسابيَّةٌ تكفي لنعرف أنَّ عدد النساء الخائنات يساوي عدد الرجال الخائنين، وإلَّا فمن يشاركهم الفراش؟ لا يمكن أن تكون هي المجموعة نفسها من المُتطوِّعات في كلِّ مرَّة.

كنتُ وزميلاتي الثلاث نكتب والسكاكين بين أسنانا. كُنَّا عصابةً تبثّ الرهبة في النفوس. ما الذي أردنا تغييره؟ أردنا تغيير العالَم، بما لنا من خيلاء الشباب، وظنناه شيئًا يمكن تحقيقه في عشرة أعوام، أو خمسة عشر عامًا. أتحدَّث عمَّا جرى منذ أكثر من نصف قرن، وانظروا أين نحن الآن لم نزَل! ولكنِّي لم أفقد الثقة بإمكانيَّة تحقيق ما سعينا إليه، ولا فقدَتها أولئك اللاتي كُنَّ زميلاتي آنذاك، والآن صرن عجائز مثلي. أعتذر لكم عن استخدام كلمة «عجوز»، التي صارت تبدو تحقيريَّةً في الوقت الراهن. ولكنِّي أتعمَّد استخدامها، لأنِّي أفتخر بكوني عجوزًا.

حكايتي يحكيها كلّ عامٍ أعيشه، وكلّ تجعيدةٍ جديدةٍ ترتسم على جسدي.

طبقًا لما قالت سيلفيا بلاث، الناشطة والشاعرة، فمأساتها الكبرى أنَّها قد وُلِدَت امرأة. أمَّا في حالتي، فولادتي امرأةً تمثِّل نعمة. كان من نصيبي المشاركة في ثورة الأنثى، تلك الثورة التي تُغيِّر وجه الحضارة، وتكتسب قوَّة، وإن يكُن بخطًى بطيئةٍ تليق بالسلطعون. كلَّما طال عمري، زاد سروري بانتمائي إلى جنسي، ولا سيَّما لأنِّي أنجبتُ پاولا ونيكولاس. إنَّ تلك التجربة السامية، التي ما زال الرجال عاجزين عن خوضها، قد حدَّدَت وجودي. كانت أسعد لحظات حياتي هي تلك

التي ضممتُ فيها ابنَيّ إلى صدري بعد الولادة. بينما كانت أتعس لحظة حياتي عندما ضممتُ پاولا بين ذراعَيَّ وهي محتضرة.

لم أحبّ كوني امرأةً دائمًا، بل إنَّني تمنَّيتُ لو كنتُ رجلًا في صغري، إذ بدا لي جليًّا أن المستقبل الذي ينتظر شقيقَيّ أجدر بالاهتمام من ذلك الذي ينتظرني. ثمَّ خانَتني الهرمونات، وفي الثانية عشرة من العمر برز خصري وظهرَت فوق ضلوعي برقوقتان. عند ذاك، بدأتُ أقلِّب في ذهني فكرة العيش كالرجال، على أقلِّ تقدير، لأنِّي لا أقدر أن أكون رجلًا على أرض الواقع. وبالعند، والجهد، وحسن الحظّ، نجحتُ في ذلك.

بعقلانيَّة، قليلات هنَّ النساء اللاتي قد يشعرن بالرضى الذي أشعر به عن كوني أنثى، إذ يحتملن ظلمًا بلا نهاية، وكأنَّها لعنةٌ إلهيَّة. ولكن، على الرَّغم من كلِّ شيء، اتَّضح أنَّ الغالبية العظمى منَّا تحبّ كونها من النساء. أمَّا البديل فيبدو لنا أسوأ. من حسن الحظّ أنَّ أعداد النساء اللاتي يُذلِّلن الحدود المفروضة عليهنَّ آخذةٌ في الزيادة. إنَّ مواجهة المشقَّة والهزائم التي يُمنَى بها المرء على الطريق تستلزم رؤيةً واضحة وقلبًا شغوفًا وإرادةً بطوليَّة. وذلك ما نسعى إلى غرسه في بناتنا وحفيداتنا.

سألتُ عددًا من المعارف والصديقات عمَّا إذا كُنَّ سعيداتٍ بجنسهنَّ ولماذا. إنَّه لسؤالٌ شائكٌ في الوقت الحالي، إذ بات مفهوم الجنس فضفاضًا، ولكنِّي سوف أستخدم كلمتَي «امرأة» و«رجل» سعيًا إلى التيسير. أُثيرَت محاورات جديرة جدًّا بالاهتمام، ولكنِّي أوضح أنَّ ما يلي مُجرَّد عيِّنةٍ محدودةٍ للغاية.

طبقًا لما ذهبتْ إليه النساء اللاتي استضفتُهنَّ، فالانتماء إلى جنس النساء يروقهنَّ، نظرًا لقدرتنا على التعاطف، وتفوُّقنا على الرجال في التضامن والتحمُّل. وبما أنَّنا نلد الأبناء، فنحن نسعى إلى الحياة، لا الإبادة. نحن الخلاص الوحيد المُمكن أمام النصف الآخر من البشريَّة، ومهمَّتنا منح الغذاء، أمَّا التدمير فمُذكَّر.

لم يعدم الأمر أولئك الذين فنَّدوا ذلك الادِّعاء بحجَّة وجود نساءٍ شريراتٍ بقدر أسوأ الرجال. صحيح، ولكنَّ الجوارح الكبرى من الرجال. يرتكب الرجال 90% من جرائم العنف. هم المسؤولون عن ثقافة الجشع والعنف التي نعيش فيها، وهم الذين يفرضون أنفسهم قسرًا، في كلِّ حال، في الحرب والسِّلم، في محيط العائلة والعمل.

أشارت امرأةٌ تبلغ من العمر قرابة أربعين عامًا إلى التستوستيرون، الذي تنشأ عنه نزعات العدوان والتنافس والتسلُّط. حكت أنَّ طبيبة النساء قد وصفَت لها ذلك الهرمون على هيئة كْريم يُدهَن به البطن لزيادة الرَّغبة الجنسيَّة، ولكنَّها اضطُرَّت إلى التوقُّف عن استخدامه، إذ نبت شعر ذقنها وصارَت تتجوَّل بسيَّارتها وقد عقدَت النيَّة على دهس أوَّل من يقف أمامها من المشاة. استنتجَت أنَّ العيش بقدرٍ أقلّ من الرَّغبة الجنسيَّة أحبّ إليها من الاضطرار إلى حلاقة الذقن والشعور بالغضب العارم.

في الأنوثة شيءٌ من الانسيابيَّة، حسبما قلن. أمَّا الرجال فيتدرَّبون على كبح عواطفهم، وتحدُّهم أصفاد الذكورة.

قالت واحدةٌ من المشاركات في استطلاع الرأي الصغير الذي أجريتُه إن لكلّ رجلٍ أمًّا في وسعها تنشئته ليكون أكثر لطفًا. فذكَّرتُها بأنَّ النسويَّات العصريَّات وحسب يقدرن على السَّعي إلى تشكيل عقليَّة

أبنائنا. تاريخيًّا، لم تقدر النساء على معارضة النظام الأبويّ. في الوقت الراهن، والقرن الحادي والعشرين في أوجه، نرى أنَّ المرأة الخاضعة، المنعزلة، غير المُتعلِّمة، ضحية التقاليد الذكوريَّة الباقية منذ آلاف الأعوام، لا تملك القدرة على تغيير العادات ولا المعرفة اللَّازمة.

أمَّا أنا فتمكَّنتُ من ذلك. إذ لم أسهم في استمرار الذكوريَّة بتنشئة الأبناء على السيطرة والبنات على التحمُّل. اتَّبعتُ ذلك النهج في تربية پاولا، ثمَّ تعمَّدتُ الاستعانة به في تربية نيكولاس. ماذا أردتُ لابنتي؟ أن تجد اختياراتٍ متاحة، وأن تعيش في غير خوف.

ماذا أردتُ لابني؟ أن يكون رفيقًا صالحًا للنساء، لا خصمًا لهنَّ. لم أُخضِع صغيرَيّ لتلك القاعدة واسعة الانتشار في تشيلي، والتي تقضي على البنات بخدمة رجال العائلة. ما زلتُ حتى يومنا هذا أرى فتياتٍ يتربَّين على ترتيب الفراش وغسيل الثياب من أجل الإخوة الذكور. وبطبيعة الحال، بعد ذلك يصبحن كالخادمات لدى الخطَّاب أو الأزواج.

منذ كان في المهد، استوعب نيكولاس مفهوم المساواة بين الجنسَيْن، الذي كان يتلقَّاه عن شقيقته إذا سهوتُ أنا عن إحدى التفاصيل. في الوقت الراهن، يشارك نيكولاس مشاركةً فعَّالةً في إدارة مُؤسَّستي، ويرى عواقب الذكوريَّة يوميًّا، ويعمل في سبيل التخفيف منها.

كان الرأي الأكثر كشفًا هو رأي إيلينا، تلك السيِّدة الآتية من هندوراس، التي تنظِّف بيتي مرَّةً في الأسبوع. منذ اثني وعشرين عامًا، تعيش إيلينا مع أبنائها في الولايات المتَّحدة، وهي لا تحمل أوراق هويَّة، وتكاد لا تعرف من الإنجليزيَّة شيئًا، وتخشى الترحيل في أيِّ لحظة، كما حدث لزوجها، ولكنَّ إيلينا تتدبَّر حالها لإعالة أسرتها. لديْها من العمل ما يفيض عن حاجتها، لأنَّها الشخص الأكثر أمانةً ووفاءً بالمسؤوليَّة من

بين كلّ معارفي. حين سألتُها عمَّا إذا كانت تحبّ كونها امرأة، رمقَتني باستغراب سائلة: «وأيّ شيءٍ عساي أن أكون يا صغيرتي إيزابيل؟ هكذا صنعني الرَّب، ولن أجني بالشكوى شيئًا».

ومن استطلاع الرأي الصغير الذي أجريته بين صديقاتي، خطر لي أن أطرح السؤال نفسه على أصدقائي. أيحبُّون كونهم رجالًا، أم أنَّهم كانوا يفضِّلون الانتماء إلى جنس آخر؟ نعم؟ أم لا؟ ولماذا؟ غير أنَّ ذلك الاستطلاع قد يتطلَّب خمسين صفحة إضافيَّة، ولذا يجب عليَّ الانتظار.

في كثيرٍ من أنحاء العالَم، نعيش في ثقافةٍ تتمحور حول الشباب والجمال والنجاح. والإبحار في تلك المياه يُمثِّل صعوبةً بالغةً في وجه أي امرأة، بل إنَّ الغرق مُؤكَّدٌ في غالب الأحوال. في طور الشباب، يهتمّ أكثرنا، نحن النساء، بالجمال. ولقد نجوتُ من ذلك التحدِّي بمشقَّةٍ في الأعوام الخمسين الأولى من حياتي، إذ كنتُ أعتبر حظِّي من الجاذبية هزيلًا. ولكن، بمن كنتُ أقارن نفسي؟ في مجلَّة پاولا، كنتُ أقارن نفسي بزميلاتي، اللاتي كُنَّ جميعًا بارعات الجمال، وبالعارضات اللاتي كُنَّ حولنا، وبالمشاركات في مسابقة ملكة جمال تشيلي التي كُنَّا نقيمها سنويًّا، إلى آخره. في أيِّ جحيمٍ كنتُ أفكِّر؟ بعد ذاك عشتُ في فنزويلا، بلد النساء الشهيَّات الجميلات بامتياز، أولئك اللاتي يفزن بجميع مسابقات الجمال الدوليَّة. يكفي أن تطلّ الواحدة على أحد الشطآن الفنزويليَّة كي تصاب بعقدة دونية لا يمكن تجاوزها.

إنَّ ملائمة القالب الذي تفرضه علينا الدعاية والسوق والفنون ووسائل الإعلام والعادات الاجتماعيَّة ضربٌ من المحال، ذلك أنَّها تلعب على تدنِّي الاعتداد بالذات كي تبيعنا منتجاتٍ بعيْنها وتفرض

علينا السيطرة. لقد ساد تَشْيِئ المرأة إلى حدٍّ يعمينا عن إدراكه، إلى حدٍّ يسمح له باستعبادنا ونحن في طور الشباب. أمَّا النسويَّة، فلا تعتقنا من تلك العبوديَّة. وحده العمر يحرِّرنا، عندما نغدو كائنات خفيَّة، ولا نعود مثارًا للشهوة، أو حين تضربنا مأساة، فتهزّنا من الأعماق، وتضعنا أمام جوهر الوجود وجهًا لوجه، الأمر الذي تعرَّضتُ له وأنا في الخمسين من عمري، عندما فارقَت ابنتي پاولا الحياة. ولذا أصفِّق للنسوية الشابة اليقظة للغاية، المُستعِدّة لكسر الصور النمطيَّة.

أرفض الاستسلام لنموذج الأنثى المثاليَّة الذي يتمركز حول أوربا ـ المرأة الشابة، البيضاء، ممشوقة القوام، النحيفة، إلى آخره ـ وإن كنتُ أحتفي بغريزتنا التي تدفعنا إلى إحاطة أنفسنا بالجمال. نُزيِّن أجسادنا ونسعى إلى تزيين المحيط الذي نعيش فيه. نحن في حاجةٍ إلى شيءٍ من التناغم، ولذا نغزل الأنسجة مُتعدِّدة الألوان، ونرسم الجداريَّات على أكواخٍ من الطين، ونصنع الخزف، والدانتيل، والقماش، إلى آخره. يُسمَّى إبداع النساء صناعةً يدويَّة، ويُباع بثمنٍ بخس. أمَّا إبداع الرجال فيُسمَّى فنًّا، ويُدَفع ثمنه باهظًا، مثل تلك الموزة التي ثبَّتها ماوريتسيو كاتيلان بشريطٍ لاصقٍ على الجدار في قاعة فنون بميامي، وُعرِضَت للبيع بسعر 120.000 دولار. وفي سعينا إلى التزيين، نستسلم لغواية الحلي الرَّخيصة، أو الأمل الذي يحدِّثنا بأنَّ قلمًا من طلاء الشفاه قد يجعل مصيرنا أفضل ممَّا هو عليه.

حتى ذكور البشر مكابرون، كما هو الحال في أنواعٍ أخرى، فهم يتجمَّلون، ويُحدِثون ضجيجًا، وينفشون ريشهم لجذب أفضل الإناث إليهم وغرس بذورهم. إنَّ الحاجة البيولوجيَّة إلى التكاثر لا تلين. وفي سبيل ذلك الهدف، يؤدِّي الجمال دورًا جوهريًّا.

لي صديقةٌ تُكثِر من إرسال صور الطيور العجيبة إليَّ عَبْر الهاتف المحمول. للطبيعة مخيّلةٌ إعجازيَّةٌ تمزج بين ألوان الريش وأشكاله. فنرى طائرًا متناهي الصغر في أدغال أميركا الوسطى يتبختر بألوان قوس قزح ليجتذب أنثى مظهرها لا يلفت الأنظار. كلَّما زاد ذكر أحد الأنواع فحولةً وبهاءً، زادَت أنثاه قبحًا. آه، يا لسخرية التطوُّر! عندما يدرك هذا الطائر الصغير وجود عشيقةٍ مُحتمَلةٍ في الجوار، ينتقي مكانًا حسن الإضاءة، ويشرع في تنظيفه بعناية، فيزيل الأوراق والأغصان وأيّ شيءٍ قد ينافسه عن الأرض. فلا يكاد الملعب يخلو ويجهز، حتى يستقرّ الطائر في المركز، ويشرع في التغريد، وبطريقةٍ سحريَّة، يُؤلِّف مروحةً فسفوريَّةً من الريشات الخضر. وإذا الأدغال تختفي إجلالًا أمام جمال ذلك التروبادور[1] المختال.

نحن كائنات حسّيَّة، نهتزّ على وقع الصوت واللون والعطر والملمس والمذاق، وكلّ ما يبثّ اللذة في حواسنا. غير أنَّ التأثُّر الذي نشعر به أمام الجمال لا يقتصر على كوكبنا الذي يُقدِّم لنا ذلك الطائر ذا المروحة الخضراء، بل إنَّه يمتدُّ ليشمل مبتكرات البشريَّة أيضًا. منذ أعوامٍ طوال، عندما كان أحفادي في عمر الخامسة والثالثة والثانية، جئتُ من رحلةٍ إلى آسيا بصندوقٍ من الخشب على قدرٍ من الضخامة. وفي الصالة، فتحنا الصندوق، حيث رقد على القشّ تمثالٌ من المرمر يبلغ طوله مترًا واحدًا. كان التمثُّل يُجسِّد بوذا ساكنًا، شابًّا، ممشوق القوام، مُتأمِّلًا، مغمض العينَيْن. وإذا بالأطفال الثلاثة يفلتون ألعابهم، ويستغرقون في صمتٍ طويل، وقد افتتنوا بالتمثال وراحوا يتأمَّلونه وكأنَّهم

(1) تروبادور: مُسمَّى أُطلِق على شعراء وموسيقيّين كانوا يُؤلِّفون أعمالهم ويؤدُّونها في العصور الوسطى. (المترجم)

يدركون على أكمل وجهٍ أنَّهم أمام شيءٍ استثنائيّ. بعد أعوامٍ طوال، ما زال أحفادي يبادرون بوذا بالتحيَّة كلَّما دخلوا إلى بيتي.

بعد وفاة والدَيّ، تعيَّن عليَّ أداء تلك المهمة الحزينة المُتمثِّلة في إخلاء بيتهما. كانت أمِّي قد دبَّرَت أمرها لشراء قطع أثاثٍ وزينةٍ ومقتنياتٍ فاخرةٍ من كلِّ وجهةٍ دبلوماسيَّةٍ ذهبا إليها. لم يكُن ذلك بالشيء اليسير، إذ اضطُرّ العمّ رامون إلى الإنفاق على أبنائه الأربعة وأبناء أمِّي الثلاثة، وكانا يمرَّان بضائقاتٍ ماليَّةٍ طوال الوقت. غير أنَّ پانتشيتا دفعَت بالحجَّة القائلة بأنَّ الأناقة لا تنشأ من تلقاء نفسها، ولا ينالها المرء بثمنٍ بخس. كان كلُّ شيءٍ تقتنيه يثير شجارًا بينهما. سافر أثاث البيت في أنحاء العالَم كثيرًا، حتى إنَّه لو كان السفر يضيف إلى المقتنيات قيمة، لصار ذلك الأثاث يعادل ثروة.

كنت أفتتن برؤية أمِّي وسط المشهد الذي صنعَته لنفسها، كذلك الطائر الصغير ذي الصدر الأخضر. ولقد ورثتُ عنها تلك الرَّغبة في تزيين بيتي، على الرَّغم من وعيي بأنَّه لا شيء يدوم، فكلٌّ في سبيله إلى التغيير، أو التفسُّخ، أو التفكُّك، أو الموت، ولذا لا أتشبَّث بشيء.

عند تقسيم مقتنيات والدَيّ عرفتُ أنَّ الكثير ممَّا كدَّسوه لم يعُد ذا قيمةٍ تُذكَر، لأنَّ الحياة العصريَّة لا تمهل المرء وقتًا لنفض الأبسطة الفارسيَّة، أو تلميع الفضِّيَّات، أو غسيل الكريستال يدويًّا، حتى اللَّوحات والبيانو وقطع الأثاث العتيقة لا مكان لها. من بين جميع المقتنيات التي كثيرًا ما اعتنَت بها أمِّي، لم أحتفظ إلَّا ببعض الصور، ولوحةٍ رسمَتها في ليما، عندما كانت شابةً في غاية التعاسة، وإبريق شايٍ روسيٍّ أقدِّم فيه

الشاي لـ«أخوات الفوضى الأبديَّة»[1]، مجموعة الصديقات المشاركات في تلك الحلقة التي سمَّيتُها «حلقة الصلاة» على غير مُسمَّى، لأنَّها تخلو تمامًا من الصلاة.

قالت لي شابةٌ في الخامسة والعشرين من العمر، تُعتبَر هي ملكة الجمال الرسميَّة بين الصديقات والقريبات، وتملك من الثقة والسلوك ما يُخوِّلها لحمل ذلك اللقب: «أتمتَّع ببعض المزايا، فأنا فارعة القوام، ولي هيئةٌ أفضل من المُتوسِّط، كما أتمتَّع بالجاذبيَّة. ولكنِّي أعاني من التحرُّش لهذا السَّبب تحديدًا. في المراهقة، تعرَّضتُ للاستغلال على يد رجل. استمرَّ الانتهاك الجنسيّ والذلّ أطول من عام. كنتُ أهابه. ولكن من حسن الحظّ أنَّ أسرتي قدَّمَت لي مساعدةً غير مشروطة، وهكذا استطعتُ الخروج من تلك العلاقة المُسمَّمة. كنتُ ضعيفة، عديمة الخبرة، هشَّة، وكان ذنبي أنَّني مُتدلِّلة، لم أحسب حساب المجازفة».

منعتُها من السَّير في ذلك الطريق الذي يكثر سالكوه، ولوم الضحايا على أفعال الجوارح. لم يحدث لها ما حدث لأنَّها جميلة، وإنَّما لأنَّها امرأة، ببساطة.

طبقًا للأسطورة الشعبيَّة، فالنساء أكثر كبرياءً من الرجال، لأنَّنا نبدي اهتمامًا بمظهرنا، ولكن كبرياء الذكور أشدّ عمقًا وأفدح ثمنًا. انظروا إلى أزيائهم العسكريَّة وأوسمتهم، انظروا إلى الفخامة والغطرسة

(1) على وزن «أخوات المعونة الأبديَّة»، وهي رهبنة مسيحيَّة كاثوليكيَّة. (المترجم)

التي يزهون بها، وإلى الأمداء التي يذهبون إليها للتأثير في نفوس النساء وإثارة الحسد في نفوس غيرهم من الذكور، انظروا إلى ما يلهون به من الألعاب الفاخرة، كالسيَّارات، وألعاب التفوُّق، كالأسلحة. أعتقد بأنَّ في وسعنا الخلوص إلى نتيجةٍ مفادها أنَّ جميعنا، رجالًا ونساءً، نقع في زلة الكبرياء على نحوٍ متشابه.

لطالما كانت أمِّي، پانتشيتا، رائعة الجمال، ويجب علينا الاعتراف بأنَّ الجمال كثيرًا ما يُعَدّ مزيَّة. لأمِّي صورٌ في الثالثة من العمر، يتبيَّن الناظر إليها مدى الجمال الذي سوف تبلغه لاحقًا، وصورٌ في أواخر التسعينيَّات من العمر، تبدو فيها جميلةً من دون شكّ، ولكنَّ المظهر الخارجيّ ما كان يُشار إليه في محيط عائلتنا، إذ اعتُبِر ذلك أمرًا يفتقر إلى الذائقة. كان من المألوف الامتناع عن مديح الأطفال لئلَّا تصيبهم الغطرسة. لو حصل الطفل على أعلى تقديرٍ في الفصل، فهو لم يؤدِّ أكثر من واجبه، ولو فاز ببطولة السباحة، فلا بدَّ أن يجتهد حتى يضرب الرَّقم القياسيّ، ولو كانت الطفلة جميلة، فلا يجب عليها التبجُّح بذلك، لأنَّها تدين لجيناتها الوراثية بالجمال. لم يكُن هنالك ما يكفي. هكذا كانت طفولتي، والحقّ أنَّ الأمر قد أعدَّني لقسوة الحياة. فأنا لا أتوقَّع أن يحتفي بي الآخرون. عندما كان أحفادي صغارًا، حاولتُ تطبيق الطريقة التشيليَّة في التربية، ولكن الأبوَيْن حالوا دوني ودون ذلك، خشية أن تترك الجدَّة عديمة القلب صدمةً في نفوس الصغار.

عاشَت پانتشيتا وهي لا تقدِّر هبة الجمال حتى بلغَت طور النضج، عندما انتهى بها الحال وقد صدَّقَت أنَّها جميلةٌ من فرط ما سمعَت ذلك بألسنة الآخرين. حين سافرتُ مع روچر، خطيبي الأخير، ومضيتُ به إلى تشيلي حتى أعرِّفه على والدَيّ، تركَت أمِّي في نفسه أثرًا قويًّا، فقال

إنَّها رائعة الجمال. عند ذاك، أشارت إلى زوجها وأجابت بزفرة: «لم يقُلها لي قطّ». فتدخَّل العمّ رامون بجفاءٍ قائلًا: «لعلَّكَ مُحِقّ، ولكنّي رأيتُها أوَّلًا».

في أواخر أعوامها، حين صارَت في حاجةٍ إلى المساعدة في كلّ شيء، حتى الأمور الأكثر حميميَّة، قالت لي أمّي إنَّها قد استسلمَت لقبول المساعدة والامتنان لها. «متى اعتمدَت الواحدة على غيرها، باتَت أكثر تواضعًا»، هكذا اعترفَت لي. وبعد صمت قلَّبت خلاله ما قالَت في ذهنها، أردفَت: «ولكن التواضع لا يمحو الكبرياء». كانت ترتدي الثياب بأكبر قدرٍ من الأناقة التي يسمح به عجزها عن الحركة، وتدهن بشرتها كاملةً بكْريمٍ مُرطِّبٍ متى قامَت من الفراش ومتى أوَت إليه، وتتزيَّن يوميًّا، ولكن برصانةٍ «فلا شيء أكثر هزلًا من عجوزٍ مبهرجة»، على حدِّ قولها. كما كانت مُصفِّفةُ الشعر تحضر لتغسل شعرها وتصفِّفه مرتَيْن. في أواخر التسعينيَّات من العمر، كانت پانتشيتا تنظر إلى نفسها في المرأة شاعرةً بالرضى. «لا أرى مظهري سيِّئًا، على الرَّغم من متاعب السنّ. أمَّا صديقاتي القليلات اللَّاتي ما زلن على قيد الحياة، فيبدون كزواحف الإغوانا!».

ورثتُ عن أمّي الكبرياء، ولكنّي أبقيتُها مطمورةً في حنايا العظام على مدى أعوام طوال، حتى استطعت أن أنفض عنّي صوت جدّي وهو يسخر من أولئك الذين يتظاهرون بغير ما هم عليه. الأمر الذي كان يشمل طلاء الشفاه وطلاء الأظفار، لأنَّ أحدًا لا يوُلَد أحمر الشفتَيْن والأظفار.

في الثالثة والعشرين، صبغتُ بضع خصلاتٍ من شعري باللَّون الأشقر، عملًا بصيحة «الخصلات الشقراء» الشهيرة، التي كانت رائجةً

آنذاك. فسألني جدّي عمَّا إذا كان أحد القطط قد تبوَّل على رأسي. تملَّكني شعورٌ بالخزي، وامتنعتُ عن زيارته طوال أيام، حتى اتَّصل بي ليتحقَّق ممَّا يجري. لم يعاود ذكر شعري، وأدركتُ أنَّ الاهتمام برأيه في كلِّ شيءٍ ليس ضروريًّا. ربَّما كانت تلك الواقعة هي التي دفعَتني إلى تعزيز الكبرياء، لا بوصفها الخطيئة التي اعتبرها جدِّي، وإنَّما اللَّذة الحميدة التي ربَّما كانتها الكبرياء ما دامت لا تُؤخَذ على محمل الجدّ. لستُ نادمةً على السماح لنفسي بالكبرياء منذ ذلك الحين، ولكنِّي أقرّ بأنَّها قد كلَّفَتني طاقةً ووقتًا ونقودًا، في سعيي إلى مثالٍ بعيْنه، حتى فهمت أخيرًا أنَّ الشيء العاقل الوحيد هو الاستفادة بما حبَتني به الطبيعة، وإن لم يكُن ذلك بالشيء الكثير.

أفتقر إلى مفاتن پانتشيتا الجسديَّة، ولذا فالكبرياء تتطلَّب منِّي انضباطًا شديدًا. أقفز عن الفراش قبل باقي سُكَّان البيت بساعةٍ حتى أغتسل وأزيِّن وجهي، لأنَّني عندما أستيقظ من النوم أبدو وكأنَّني ملاكمٌ مضروب. الزينة أعزّ صديقاتي، والثياب الملائمة تساعدني على مداراة تفاصيلي التي سقطَت وما عدتُ أجدها بالأسفل. أتجنَّب آخر صيحة، لأنَّ الأمر ينطوي على مخاطرة. في بعض الصور العتيقة، أبدو حبلى في الشهر السابع، بتنُّورةٍ قصيرة، وقد انتفش شعري كما لو كنتُ أعتمر شعرًا مستعارًا فوق آخر. لا تليق بي آخر صيحة.

يصعب التقدُّم في العمر على المرأة المختالة مثلي. فأنا ما زلتُ مغريةً من الداخل، ولكن أحدًا لا ينتبه إلى ذلك. أعترف بأنَّ الخفاء يجعلني أشعر بالمهانة قليلًا، وأفضِّل أن أكون مركز الانتباه. أودُّ لو بقيتُ حسِّيَّة ـ في حدودٍ معيَّنة ـ ولذا فالشعور بأنَّني مرغوبةٌ يلائمني، ولكن ذلك ليس بالأمر اليسير في مثل عمري. تكمن الحسِّيَّة في الهرمونات

والمخيَّلة بوجه العموم. أتناول الأقراص لتعويض الهرمونات، أمَّا المخيَّلة فلا تخذلني في الوقت الراهن.

ما كلُّ هذا التعقيد في ما يتعلَّق بمظهري؟ أين ذهبَت النسويَّة؟ كلّ ما هنالك أن مظهري يُدخِل على نفسي سرورًا. تروق لي الأنسجة، والألوان، والزينة، وروتين الزينة كلّ صباح، وإن كنتُ أمضي معظم الوقت في الكتابة، حبيسة العليَّة. «لا أحد يراني، ولكنّي أرى ذاتي»، مثلما كانت تقول أمّي بفلسفة، وهي لا تعني المظهر الخارجيّ فحسب، بل وأعمق سمات الشخصيَّة والسلوك أيضًا. إنَّها طريقتي في تحدِّي الشيخوخة. كما يساعدني كثيرًا أن يكون لي حبيبٌ يراني بقلبه. وروچر يراني عارضة أزياءٍ مثيرة، وإن كنتُ في نظره أقصر قامةً بكثير.

بتراكم الأعوام، تتبدَّل فكرتي عن الحسّيَّة. في عام 1998، وضعتُ كتابًا عن المُنشِّطات الجنسيَّة، ما يشبه مُذكِّرات الحواس، أطلقتُ عليه أفروديت، بطبيعة الحال. والمُنشِّطات الجنسيَّة موادٌّ تزيد من الرَّغبة والقدرة الجنسيَّة. قبل أن تصبح عقارات كالڤياغرا شعبيَّةً، وثق الناس بأطعمةٍ معيَّنة، يُفترَض بأن يكون لها الأثر نفسه. والباذنجان من الأمثلة الجيِّدة على تلك الأطعمة، إذ يجب على الخطيبة في تركيا أن تتعلَّم إعداده بعشرات الطرق لضمان حماسة زوج المستقبل للمناطحة. في اعتقادي أنَّ الأزواج باتوا يفضِّلون الهمبرغر حاليًا.

تطوَّرَت المُنشِّطات الجنسيَّة في بلدانٍ مثل الصين وفارس والهند، حيث يجب على الرجل أن يُشبع أكثر من زوجة. في الصين، كان رخاء الأمَّة يُقاس بعدد الأبناء الذين ينجبهم الإمبراطور، ولذا كانت له مئات من المحظيَّات في ريعان الشباب.

استعدادًا لذلك الكتاب، أمضيتُ عامًا في البحث والمطالعة والتفتيش عن الإلهام في المتاجر الإيروتيكيَّة وتجريب وصفات المُنشِّطات في المطبخ واختبار الأطباق. المُنشِّطات الجنسيَّة كالسحر الأسود. لو شئتم الحصول على نتائج ملحوظة، أوصيكم بأن تخبروا الضحية متى فكَّرتم في تقديم المُنشِّطات لها. الأمر الذي اكتشفتُه مع بعض الأصدقاء الذين كانوا يحضرون مثل فئران التجارب لتذوُّق الأطباق التي أعددتُها. فلم تكُن الوصفة تؤثِّر إلَّا في أولئك المدعوين الذين أخبرتُهم على نحوٍ لائقٍ بأنَّها من الوصفات المُنشِّطة جنسيًّا. أفترض ذلك، لأنَّهم سرعان ما كانوا يستأذنون في المغادرة. أمَّا الباقون فما كانوا يفطنون لشيء. الإيحاء يصنع المعجزات.

في الماضي، كنتُ أحلم بليلةٍ أمضيها برفقة أنطونيو بانديراس. أمَّا الآن، فيبدو لي ذلك الاحتمال البعيد مُرهِقًا. بل إنَّ الاغتسال طويلًا ثمَّ الاستلقاء مع روچر والكلبتَيْن بين الملاءات المكوية بعنايةٍ لمشاهدة التلفزيون يبدو لي أشهى كثيرًا. ومن أجل هذا، لستُ في حاجةٍ إلى ثيابٍ داخليَّةٍ من الحرير لمداراة الأنسجة الرخوة.

كنتُ في السادسة والخمسين من العمر حين كتبتُ أفروديت. لا أقدر على كتابة مثل هذا الكتاب اليوم، فالموضوع يبدو لي خياليًّا، لأنَّ الطهو يصيبني بالضجر، وليسَت لديَّ أدنى نيَّة في تقديم المنُشِّطات الجنسيَّة لأحد. في الماضي، كثيرًا ما قلتُ إنَّني لا أستطيع كتابة عملٍ إيروتيكيٍّ لأنَّ والدتي كانت على قيد الحياة. ولكن بعد وفاة پانتشيتا، راسلَتني عدَّة قارئات، وطلبن منِّي كتابة عملٍ إيروتيكيّ. أنا آسفة، ولكنِّي أخشى أنَّ الأوان قد فات، لأنَّ والدتي استغرقَت طويلًا في مفارقة هذا العالَم، والآن صارَت

الإيروتيكيَّة تهمّني أقلّ كثيرًا ممَّا يهمّني الضحك والحنان. ربَّما كان عليَّ زيادة جرعة الأستروچين والبدء في دهان بطني بكْريم التستوستيرون.

لا أرغب في تكرار الحماقات الفادحة التي وقعتُ فيها بين الثلاثين والخمسين، مدفوعةً بالشغف الجنسيّ، بَيْد أنّي لا أودُّ نسيانها أيضًا، لأنَّها تشبه أوسمة الاستحقاق.

وعلى الرَّغم من ذلك، أقرُّ بأنَّ القلب الشغوف يُلبِّد عقلي بالغيوم أحيانًا. ما لم يكُن السَّبب قضيَّةً تشغلني إلى حدّ الهوس، مثل العدالة والدفاع عن المعوزين والحيوانات، والنسويَّة طبعًا، فالحبّ الجارف هو الذي يلبِّد عقلي بالغيوم، في غالب الأحوال. كما جرى عام 1976، في فنزويلا، حين وقعتُ في غرام موسيقيٍّ أرجنتينيٍّ هاربٍ ممَّا عُرِف باسم «الحرب القذرة» في بلده. تركتُ زوجي الصالح وابنَيّ حتى أذهب في أثر الموسيقي إلى إسبانيا، حيث منيتُ بخيبة أملٍ شديدة، وعدتُ إلى أسرتي بقلبٍ مُحطَّم، أجرّ أذيال الخيبة. لم يغفر لي ابناي تلك الخيانة قبل مضي عشرة أعوام.

لم يكُن زمَّار هاملين[1] هو العاشق الوحيد الذي ارتكبتُ من أجله أفعالًا مجنونة. في عام 1987، وخلال جولةٍ أدبيَّة، تعرَّفتُ بـويلي، محامٍ من كاليفورنيا، فلم أتردَّد في هجر بيتي بكاراكاس، وتوديع ابنَيّ اللذيْن نضجا وما عادا في حاجةٍ إليَّ، ثمَّ انتقلتُ للعيش معه، بلا متاع، ومن دون أن يدعوني إلى ذلك. بعد قليل، تدبَّرتُ حالي كي أرغم ويلي على الزواج منِّي، إذ كنتُ في حاجةٍ إلى تأشيرةٍ تسمح لي بدعوة ابنَيّ إلى الولايات المتَّحدة.

---

(1) زمَّار هاملين: زمَّار استطاع أن يسحر الأطفال ويخلبهم بموسيقاه، طبقًا للأسطورة التي تعود إلى العصور الوسطى. (المترجم)

أمَّا في عمري هذا، فأعيش الشغف مثلما عشتُه في طور الشباب، ولكنّي أفكّر حينًا قبل ارتكاب فعلةٍ طائشة، دعونا نقُل يومَيْن أو ثلاثة أيَّام. وهكذا استسلمتُ للغواية عام 2016، وأنا في أواخر السبعينيَّات، عندما التقيتُ بالرجل الملائم: في نزوةٍ من نزوات القلب. ولسوف يغدو ذلك الرجل هو زوجي الثالث، غير أنّي لا أودُّ استباق الأحداث. صبرًا، فسرعان ما أحكي لكم عن روچر.

لقد هدأ شغفي الإيروتيكيّ إلى حدٍّ كبير، ولعلَّه يختفي ذات يوم، كما يختفي بمضي الأعوام، حسبما يُقال. ما زلتُ غير مُضطرَّة إلى الأخذ بذلك في الاعتبار. ولو اختفى شغفي الإيروتيكيّ، أَمل أن تمكن الاستعاضة عنه بحسّ الدعابة والحنان والزمالة، كما يفعل بعض الأصدقاء الذين يعيشون مع شركائهم في مثل عمري. أتساءل عمَّا يمكن فعله إذا فقد أحد الزوجَيْن الشغف والرَّغبة الجنسيَّة قبل الآخر. لا أدري، سأرى متى حانت تلك اللحظة.

إنَّ تحرُّر المرأة لا يتناقض والأنثويَّة، بل إنَّه يُكمِّلها، وفق ما أعتقد. فالروح الحرَّة قد تكون مثيرة، الأمر رهنٌ بالمنظور. بتواضعٍ، أقرّ بأنَّني لم أعدم المعجبين خلال وجودي الذي طال أمدًا، على الرَّغم من النسويَّة. تجاوزتُ سنّ اليأس منذ ثلاثة عقود، وما زلتُ قادرةً على أن أكون مثيرةً في لقاءٍ خاصّ، عن طريق استراتيجيَّاتٍ بعيْنها، طبعًا. فربَّما خدعتُ رجلًا شاردًا، على ضوء الشمعة، إن هو احتسَى ثلاث كؤوسٍ من النبيذ، وخلع النظارة عن عينَيْه، ولم يتراجع في وجه رفيقةٍ تأخذ زمام المبادرة.

من حسن الحظّ أنَّ الجنسانيَّة لم تعُد خاضعةً لقواعد ثابتة أو تصنيفات. يؤكِّد لي أحفادي أنَّهم ليسوا ثنائيِّين. وكلَّما عرَّفوني بأصدقاء

لهم، وجب عليَّ السُّؤال عن الضمير الذي يفضِّل كلّ واحدٍ أن أخاطبه به. لا يسهل عليَّ ذكره، لأنّي أعيش في كاليفورنيا والإنجليزيَّة لغتي الثانية، وفي بعض الأحيان يجب تصريف الفعل بصيغة المفرد مع ضمير الجمع. أمَّا الإسبانيَّة فأشدّ تعقيدًا، لأنَّ الأسماء والصفات تنقسم إلى مُؤنَّثٍ ومُذكَّر.

ولقد بدأ التشكيك في الضمائر في يوغوسلافيا السابقة، تلك التي تفكَّكَت عقب حروبٍ مُروِّعةٍ دارَت رحاها بين عامَي 1991 و2006، وانقسمَت إلى ستّ جمهوريات ذات سيادة: سلوفينيا، وكرواتيا، والبوسنة ـ الهرسك، ومونتينيغرو، ومقدونيا الشماليَّة، والصرب. في ظلِّ أجواء الحرب والذكوريَّة المُتطرِّفة، صارَت الوطنيَّة مزيجًا لا تنفصل مُكوِّناته، مزيجًا مُؤلَّفًا من النظام الأبويّ والأمَّة وكره النساء. وعُرِّفَت الذكورة بوصفها القوَّة والسلطة والعنف والغزو. وهكذا دعَت الضرورة إلى حماية نساء المجموعة وبناتها، حتى ينجبن من أجل الوطن. أمَّا نساء العدو، فتعرَّضن للاغتصاب والتعذيب، في مُخطَّطٍ منهجيٍّ يرمي إلى ترك النساء حوامل وإذلال الرجال. وفقًا لأشدّ الإحصاءات تحفُّظًا، اغتُصِبَت عشرون ألف امرأةٍ مسلمةٍ في البوسنة على أيدي الصرب، ولكن ربَّما كانت الأعداد أكبر كثيرًا.

بانتهاء النزاع، رفض الشباب التفريق بين الجنسَيْن الذي فرضَته القوميَّة المُتطرِّفة، واعترضوا على تصنيف المُذكَّر والمُؤنَّث، وبدَّلوا بالضمائر المُستخدَمة أخرى غير ثنائيَّة. ثمَّ وصلَت تلك الممارسة إلى الولايات المتَّحدة وسائر أنحاء أوروبا بعد أعوام. بالإسبانيَّة، جرى تبنِّي ضميرَي «elle» و«elles»[1]، فضلًا عن خاتمةٍ محايدةٍ للأسماء والصفات،

(1) بدلًا من «ellos»/«él» (هو/هم)، أو «ellas»/«ella» (هي/هنَّ). (المترجم)

مثل «amigue» بدلًا من «amiga» (صديقة) أو «amigo» (صديق). وفي بعض الحالات، تُستخدَم علامة التأنيث بدلًا من علامة التذكير، كما في حالة الحزب السياسيّ «Unidas Podemos» (مُتَّحِدات نستطيع)، بدلًا من «Unidos Podemos» (مُتَّحِدين نستطيع). شيءٌ مُعقَّد، ولكنّي أفترض بأنَّه لو فُرِضَت الممارسة، لألفنا الأمر.

اللغة في غاية الأهمّيَّة، فهي عادةً ما تُحدِّد الإطار الذي نفكّر فيه. للكلمات قوَّة. ومن الملائم للنظام الأبويّ تصنيف الناس، فهكذا تسهُل ممارسة السيطرة. تلقائيًّا، نقبل تصنيفنا على أساس الجنس والعرق والسنّ إلى آخره، ولكن الكثير من الشبَّان يتحدُّون ذلك التقسيم.

من الظاهر أنَّ دور الأنثى ودور الذكر ما عادا يلقيان رواجًا، وبات من الممكن اختيار بدائل شتَّى، طبقًا للحالة المعنويَّة. أمَّا أنا فمغايرة جنسيًّا حتى الموت، الأمر الذي يحدّ الخيارات المتاحة أمامي كثيرًا. لو كنتُ مثليَّة، لكان ذلك أكثر ملائمة، لأنَّ النساء في مثل عمري أجدر بالاهتمام، وحالهنَّ أفضل من الرجال في الشيخوخة. أتظنّونني أبالغ في ما أقول؟ ألقوا نظرةً حولكم.

إنَّ القوى الظلاميَّة، ولا سيَّما الدين والتقاليد، تحرم المرأة من الحقّ في المتعة وممارسة الجنسانيَّة. والأمثلة على ما تقدَّم كثيرة، بدءًا بالهوس بغشاء البكارة ووفاء المرأة، وصولًا إلى تشويه الأعضاء التناسليَّة والنقاب. أمَّا المرأة الجنسيَّة، فتبثّ الذعر في نفس الرجل، الذي يرى ضرورة التحكُّم فيها حتى يضمن ألَّا تدخل المرأة في علاقاتٍ مُتعدِّدة، ويضمن ألَّا تستطيع مقارنته بغيره من الرجال، أو الاستغناء عنه. لو بحثَت المرأة عن المتعة والتنوُّع، لما عاد في إمكانه الوثوق بأبوَّته.

في الغرب، اضطُرَّت تلك القوى الظلاميَّة إلى التراجع، بَيْد أنَّها لا تزال مُتربِّصة.

كبرتُ في زمن الذكوريَّة الجامحة، عندما كانت الرغبة الجنسيَّة والشهوة حكرًا على الذكور دون غيرهم. كان يُفترَض بأنَّ الإناث عفيفاتٍ بالفطرة، ويجب على الرجل أن يغويهنَّ. ما كُنَّا نملك الإسهام في غوايتنا، بل يجب علينا التظاهر بالاستسلام من فرط التعب، لئلَّا نوصَم بـ«الساقطات». ولو حكى الذكر دورَ البطولة الذي لعبه، كُنَّا نستشيط غضبًا، ويعتبرنا الناس سهلات المنال. أُنكِرَت الرَّغبة الجنسيَّة للأنثى، وأيُّ بديلٍ عن العلاقة المغايرة مع الزوج الواحد كان يُعَدّ انحرافًا أو إثمًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«أيُّها الرجال الحمقى،
يا من توجِّهون أصابع الاتِّهام إلى المرأة،
بغير وجه حقّ،
وأنتم لا ترون أنَّكم أنتم السَّبب
في ما تأخذون عليها:
ما دمتم تطالبون بازدرائها،
في لهفةٍ منقطعة النظير،
فلماذا تريدون منها أن تصنع خيرًا،
ما دمتم تحرِّضونها على الشرّ؟
[...]
مَن صاحب الذنب الأعظم
في شغفٍ أثيم:

تلك التي تسقط تلبيةً للتوسَّلات،
أم ذلك الذي يلتمس سقوطها؟

أي الذنبَيْن أعظم
وإن أخطأ الطرفان:
تلك التي تأثم مقابل المال،
أم ذلك الذي يدفع مقابل الإثم؟»

خوانا إينيس دي لا كروس،
«رجالٌ حمقى»

طوال حياتي، أثبتُّ أنَّني رومانسيَّةٌ عصِّيَّةٌ على الشفاء، ولكن رومانسيَّة الأدب تُمثِّل تحدِّيًا هائلًا في وجهي. أكتب منذ أعوامٍ طوال، غير أنِّي لم أكتسب موهبة أستاذات الرواية الرومانسيَّة، وأعرف أنِّي لن أكتسبها ما حيِّيت. أحاول أن أتخيَّل العاشق الذي قد ترغب فيه قارئاتي المغايرات جنسيًّا، ولكنِّي لا أميل إلى تلك التوليفة من المزايا الذكوريَّة. يُفترَض بأن يكون الرجل المثاليّ وسيمًا، قويًّا، ثريًّا، ذا سطوة، أبعد ما يكون عن الحماقة، خائبًا في الحبّ، ولكنَّه على أهبَّة الاستسلام لغواية البطلة... فيمَ الاسترسال! لا أعرف مَن يصلح لأتَّخذ منه نموذجًا.

لو أفلحتُ في خلق عاشقٍ يليق بالأفلام ـ دعونا نصفه بأنَّه شابٌّ مثاليّ، باسل، مفتول العضلات، أسمر البشرة، ذو شعرٍ مُرسَلٍ فاحمٍ وعينَيْن مخمليَّتَيْن، مثل أوبيرتو نارانخو في كتابي إيفا لونا ـ فالأمر خطيرٌ ومُتملِّصٌ دائمًا. عادةً ما تفتك تلك الجاذبية ببطلة روايتي، التي سوف ينفطر فؤادها ما لم أقتل البطل بشكلٍ ملائمٍ قرب منتصف الرواية. في

بعض الأحيان، يكون البطل شخصًا طيِّبًا، ولكنَّه إن تمادى في الرومانسيَّة بات موته ضرورة، لتجنُّب النهاية السَّعيدة التي تميِّز الرواية الرومانسيَّة، كما فعلتُ بريان ميلر في روايتي لعبة ريبر. في هذه الحالة، اضطُرِرتُ إلى الاختيار بين قتل ريان وقتل كلبه أتيلا. ماذا تفعلون لو كنتم مكاني؟

إنَّما العشَّاق في كتبي من المحاربين المُتشدِّدين، والتُجَّار المصابين بالشفة الأرنبيَّة، والأساتذة النباتيِّين، والجنود ذوي الأطراف المبتورة، والشيوخ غير المرئيِّين في عمر الثمانين، إلى آخره. ومن الاستثناءات القليلة التي نجَت من غريزتي القاتلة، نجد كلًّا من كابتن رودريغو دي كيروغا وزورو. فأوَّلهما شخصيَّةٌ تاريخيَّة، فاتح تشيلي الشجاع، زوج إينيس سواريس، الذي نجا من مقصِّي لأنَّني لستُ أنا التي ابتكرته، بل إنَّه مات في المعركة على أرض الواقع، بعد أن طعن في العمر. حتى زورو لم يكُن من ابتكاري. بل إنَّ ذلك الرجل المُقنَّع الآتي من كاليفورنيا على قيد الوجود منذ ما يربو على المئة عام، وما زال يتسلَّق الشرفات حتى يغوي العذارى البريئات والزوجات اللاتي أدركهنَّ الضجر. لا يسعني قتله لأنَّ حقوق الملكيَّة الفكريَّة ملكٌ لشركةٍ يُمثِّلها محامون مخضرمون.

لقد سعى أحفادي إلى تنويري في ما يتعلَّق بمختلف أشكال الحبّ السائدة بين شباب اليوم. وعندما حدَّثوني عن علاقات الحبّ مُتعدِّدة الشركاء، على سبيل المثال، حكيتُ لهم أنَّ تلك العلاقات كانت موجودةً دائمًا. في شبابي، في الستينيَّات والسبعينيَّات، كان يُطلَق عليها الحبّ الحرّ. وعلى الرَّغم من ذلك، فهم يؤكِّدون لي أنَّ تلك العلاقات مختلفة، لأنَّ الكثيرين ما عادوا يعرِّفون نفسهم على أنَّهم

ثنائيّين ـ من الذكور أو الإناث ـ وتراكيب الأزواج والمجموعات صارَت أجدر بالاهتمام بالقياس إلى ما كانت عليه في زمني. أكاد أنفجر غيظًا متى حدَّثوني عن «زمني». هذا هو زمني! ولكن من واجبي الاعتراف بأنَّ عمري ما عاد يسمح لي بالمغامرة في منطقة العلاقات العصريَّة المُتعدِّدة غير الثنائيَّة، مع الأسف.

وبما أنَّنا في معرض الحديث عن الحبّ العصريّ، فأنا لا أملك الإمساك عن ذكر الحب عَبْر الإنترنت، كما يجري الآن. في عام 2015، عندما انفصلتُ عن زوجي الثاني، ويلي، بعد ثمانية وعشرين عامًا من الحياة المشتركة، قرَّرتُ العيش وحيدةً في بيتٍ صغير، لأنَّ الزواج مرَّةً أخرى، من رجلٍ عجوزٍ تستحوذ عليه الهواجس والمتاعب الكثيرة، بدا لي وكأنَّه كابوس. أمَّا اجتذاب عاشقٍ جديد، فرأيتُه مُستبعَدًا، بقدر احتمال أن ينبت لي جناحان. ولكن بعض صديقاتي الأصغر عمرًا اقترحن عليَّ البحث عَبْر الإنترنت.

كيف أفعلها وأنا عاجزةٌ حتى عن التسوُّق عَبْر موقع أمازون؟ لن يردّ أحدٌ على إعلاني الآتي: «جدّةٌ في الثالثة والسبعين من العمر، مهاجرةٌ لاتينيَّة تحمل أوراق هوية، نسويَّة، قصيرة القامة، بلا أيِّ مهاراتٍ منزليَّة، تبحث عن رفيقٍ نظيف، حسن السلوك، لمرافقتها إلى المطاعم ودور السينما».

تُعَدّ كلمة «تلقائيّ» ـ أو ما يماثلها في الغموض ـ لفظًا مُخفَّفًا يُراد به الاستعداد الجنسيّ. أمَّا أنا فلستُ «تلقائيَّةً» في المُطلَق، بل إنَّني في حاجةٍ إلى الحميميَّة، والإضاءة الخافتة، واللُّطف، والماريجوانا. عند النساء، يتضاءل الشغف الجنسيّ أو يختفي بالتقدُّم في العمر، ما لم نقع في الغرام. من الواضح أنَّ الأمر يختلف لدى الرجال. في موضعٍ ما،

قرأتُ أن الرجال يفكّرون في الجنس مرَّةً كلَّ ثلاث دقائق في المُتوسِّط، ويتشبَّثون بخيالاتهم الإيروتيكيَّة حتى الموت، وإن لم يعُد كثيرٌ منهم يذكر حتى ما الانتصاب. ولكن لا بدّ أنَّها أسطورة. في ظلِّ هذا الوضع، مِن المفاجئ أن يتمكَّنوا من تحقيق شيءٍ في الحياة!

إنَّ أيّ رجلٍ سبعينيٍّ أكرش عكر المزاج يشعر بالقدرة على التودُّد إلى امرأةٍ تصغره بعشرين أو ثلاثين عامًا، الأمر الذي يمكن التأكُّد منه يوميًّا. أمَّا لو رافقَت المرأة رجلًا يصغرها عمرًا، فيُعَدّ هذا شيئًا بذيئًا. إليكم مثال على أحد الإعلانات المُتاحة على الإنترنت: «محاسبٌ مُتقاعِد، في الستِّين من العمر، خبيرٌ في صنوف النبيذ والمطاعم، يبحث عن امرأةٍ بين الخامسة والعشرين والثلاثين، بارزة النهدَيْن، لها شهيَّة جنسيَّة مفتوحة، لتمضية وقتٍ طيب». أتساءل من تردّ على مثل هذه الإعلانات. ولأنَّ أكثر الرجال يبحثون عن نساءٍ أصغر عمرًا بكثير، فلو اهتمّ رجلٌ غرير بإعلاني، لكان عمره يتجاوز المئة عام.

دفعَني الفضول الصحافيّ إلى البحث، وهكذا شرعتُ في إجراء لقاءاتٍ مع نساءٍ من مختلف الأعمار، لجأن إلى الإنترنت بحثًا عن شريك. كما تحرَّيتُ عن اثنتَيْن من وكالات البحث عن شريك، ثبت أنَّهما تمارسان الاحتيال. فمقابل مبالغ فلكيَّة، كانت الوكالة تضمن ثمانية لقاءاتٍ مع رجالٍ مناسبين، محترفين، مُثقَّفين، تقدُّميِّين، بين الخامسة والستّين والخامسة والسبعين، في صحَّةٍ جيِّدة، إلى آخره. خرجتُ مع ثلاثة أو أربعة رجالٍ تنطبق عليهم تلك الأوصاف، وإذا بي أدرك أنَّهم يعملون لحساب الوكالة، وأنَّهم هم الذين يخرجون برفقة جميع العميلات للوفاء باللقاءات الثمانية المُتَّفق عليها.

أمَّا الإنترنت، فأكثر صدقًا، وعدد العلاقات التي تنشأ عَبْر الإنترنت أكثر مدعاةً للأمل. وعلى الرَّغم من ذلك، تُرتكَب الإساءات في بعض الأحيان: فهذه يوديت، شابةٌ جذَّابةٌ في الحادية والثلاثين من العمر، ظلَّت تنتظر اللقاء أربعين دقيقة في أحد الحانات، ثمَّ أدركها اليأس، وبينما هي تكاد تبلغ سيَّارتها، تلقَّت رسالةً نصِّيَّةً تقول: «أنا في الحانة، ولكنِّي لم أقترب منكِ لأنَّكِ دميمة، بدينة، عجوز». أتساءل، ما كلّ هذا الشرّ؟ أمضَت يوديت شهورًا مصابةً بالاكتئاب، بسبب مُختَلٍّ يلذّ له إيقاع الأذى بامرأةٍ لا يعرفها.

إليكم حالة أخرى جديرة بالاهتمام: بريندا، مديرةٌ تنفيذيَّةٌ تبلغ من العمر ستة وأربعين عامًا، وقعَت في غرام معماريٍّ إنجليزيٍّ رومانسيّ شغوفٍ عَبْر الإنترنت. كان فارق التوقيت بينهما يُقدَّر بتسع ساعات، أضف إلى ذلك مسافة تُقطَع في عشر ساعات على متن الطائرة. وعلى الرَّغم من ذلك، جمعها به الكثير من الأفكار والميول المُشترَكة، وكأنَّهما قد نشأَ معًا. اشترك المعماري وبريندا في أمورٍ كثيرة، بدءًا بالذائقة الموسيقيَّة وصولًا إلى تفضيل القطط الشيرازيَّة. في مناسبتَيْن، أعرب عن رغبته في السفر إلى كاليفورنيا حتى يتمكَّن من لقائها، ولكن متطلَّبات العمل حالَت دون ذلك. عرضَت عليه السفر إلى لندن، ولكنَّه أراد مقابلتها في المحيط الخاصّ بها، في بيتها، مع أصدقائها وقططها. وأخيرًا، اتَّفقا على اللِّقاء فور عودته من تركيا، حيث كان لديْه مشروعٌ في غاية الأهمِّيَّة.

وفي ما هي على تلك الحال، تلقَّت بريندا اتِّصالًا من محامٍ يزعم بأنَّ المعماريّ قد صدم شخصًا بسيَّارته المُستأجَرة في إسطنبول، فزُجَّ

به في السجن، وأدركه اليأس، لأنَّ الأوضاع في السجن كابوسيَّة، وهو في حاجةٍ إلى اقتراض مبلغٍ من المال فورًا حتى يسدِّد الكفالة، ويجب إيداع المبلغ المشار إليه في حسابٍ بعيْنه.

كانت بريندا تحبُّه حبًّا جارفًا، ولكنَّها ليسَت غبيَّة. وجدَت المبلغ باهظًا، حتى بالنِّسبة لشخصٍ ميسور الحال مثلها. وقبل تحويل المبلغ، استشارَت مُحقِّقًا محليًّا. «سيِّدتي، لن أتقاضى منكِ أجرًا، لأنَّني لستُ في حاجةٍ إلى التَّحقيق في القضية، فأنا أحفظها عن ظهر قلب»، قال لها المُحقِّق، وشرع يوضِّح لها إنَّ ذلك الشخص محتالٌ معروف، مُمثِّلٌ مُتوقِّفٌ عن العمل من لوس أنجلوس، مُتخصِّصٌ في البحث عن نساءٍ وحيداتٍ ثريَّاتٍ عَبْر الإنترنت، ثمَّ يتحرَّى عن كلِّ شيءٍ ممكنٍ بشأن أولئك النساء حتى يختلق المُعجَب المثاليّ. كانت لبريندا صفحةٌ إلكترونيَّةٌ تضمّ قدرًا كبيرًا من المعلومات عنها، أمَّا الباقي فقد استطلعه خلال الأحاديث الطويلة التي أجراها معها بلكنة الأرستقراطيّ الإنجليزيّ الزائفة. ولقد أغواها مثلما أغوى غيرها من النساء في مرَّاتٍ سابقة.

لم ترسل الحوالة لسداد الكفالة المزعومة، وانقطعَت أخباره عنها منذ ذلك الحين. بلغ الخذلان حدًّا هائلًا، جعلها لا تتحسَّر على ضياع الحبّ، بل تشعر بالامتنان لأنَّها نجَت في الوقت المناسب. والعبرة من تلك القصَّة، حسبما قالت، أنَّه لا يجب الوثوق بالمعماريِّين الإنجليز.

لا أملك حذق بريندا. فأنا ما كنتُ سأكتفي بجمع النقود لسداد الكفالة وحسب، بل كنتُ سأذهب في الليلة نفسها إلى تركيا لتخليص الرجل من الحجز. من حسن الحظّ أنَّني لم أُضطَرَّ إلى تعريض نفسي لشيءٍ من هذا القبيل، ولم أبقَ وحدي أيضًا، كما خطَّطتُ لنفسي، لأنَّ السماء قد أرسلَت إليَّ التروبادور الذي كنتُ أفتِّش عنه.

تحدَّثنا عن الشغف الجنسيّ والرومانسيّ. ولكن، ماذا يعني أن تكون المرأة شغوفة؟ طبقًا لما ورد في القاموس، فالشغف يعني اختلالًا أو شعورًا ملتبسًا، كما يُوصَف بأنَّه عاطفةٌ قويَّةٌ لا تُقاوَم قد تفضي بالمرء إلى ارتكاب أفعالٍ تنطوي على هوسٍ أو خطورة. أمَّا التعريف الخاصّ بي أنا فأقلّ قتامة، وأقول فيه إنَّ الشغف حماسةٌ لا يُكبَح جماحها، وطاقةٌ مُتفجِّرة، واستسلامٌ مُطلَقٌ لشيءٍ أو لشخص. الأمر الإيجابيّ في الشغف أنَّه يدفعنا إلى الأمام، ويُبقينا شبابًا، مُلتزِمين. لقد تدرَّبتُ على مدى أعوامٍ لأصبح عجوزًا شغوفة، مثلما يتدرَّب آخرون على تسلُّق الجبال أو خوض منافسات الشطرنج. لا أريد لذلك الحرص الخليق بالتقدُّم في العمر أن يُفسد عليَّ شغفي بالحياة. ذكرتُ إليسا سوميرز، بطلة رواية ابنة الحظ. لا شكّ أنَّها كانت باسلةً وشجاعةً لأنَّها تسلَّلَت إلى سفينة شحنٍ لتُبحر عَبْر المحيط الهادي طوال أسابيع حتى وصلَت إلى كاليفورنيا، ولكنَّها ذهبَت مدفوعة بالحبّ، بخلاف المغامرين وقطَّاع الطرق والهاربين من العدالة وغيرهم من الرجال الطموحين إلى حدّ الجنون، أولئك الذين جاؤوا بحثًا عن الذهب. شعرَت بحبٍّ شغوفٍ نحو شاب، لعلّه ما كان يستحقّها. فتَّشَت عنه في كلِّ مكان، بشغفٍ عنيد، وتحمَّلَت في سبيل ذلك أكثر الأوضاع قسوة، في منطقةٍ محفوفةٍ بالعداء والخطر الشديد، وشبح العنف والموت يتربَّص بها طوال الوقت.

أكثر بطلات كتبي شغوفات، لأنَّ أولئك هم الناس الذين أهتمُّ بهم، المجازفون، القادرون على ارتكاب أفعالٍ تنطوي على هوسٍ أو خطورة، كما يقول القاموس. الحياة الهادئة الآمنة ليسَت مادةً جيِّدةً للخيال.

أحيانًا ما أُوصَف بأنَّني شخصٌ شغوف، لأنَّني لم أبقَ هادئةً في بيتي كما يُتوقَّع منِّي. ولكن يجب عليَّ أن أوضِّح ما يلي: لم أقدم على

تلك الأفعال المجازفة مدفوعةً بالمزاج الشغوف كلّ مرَّة، بل كانت الظروف تدفعني في اتِّجاهاتٍ عصِّيَّةٍ على التوقُّع أحيانًا، فلا أجد بديلًا عن السَّعي جاهدة. عشتُ في بحرٍ عاصف، حيث كانت الأمواج ترفعني ثمَّ تُلقي بي في الخواء. بلغَت الأمواج من القوَّة حدًّا جعلني، بدلًا من الاسترخاء في سلام اللحظة، أتأهَّب للسقوط العنيف مسبقًا، بينما كل شيءٍ يسير على ما يُرام، اعتقادًا منِّي بحتميَّة السقوط. لم يَعُد الأمر هكذا. الآن صرتُ أبحر هائمةً على وجهي، يومًا بيوم، سعيدةً لمُجرَّد أنِّي طافيةٌ على السطح، ما دمتُ قادرةً على ذلك.

في شبابي، كنتُ أمضي مدفوعةً بشغفٍ جارف. على الرَّغم من ذلك، لا أذكر إذا راودَتني طموحات أدبيَّة ذات مرَّة. أعتقد بأنَّ الفكرة لم تخطر لي على بال، لأنَّ الطموح كان حكرًا على الذكور آنذاك. أمَّا لو وُصِفَت به المرأة، فهو مسبَّة. كان حراك تحرير المرأة ضروريًّا ليكتسب بعض النساء ذلك المفهوم، كما اكتسبن الغضب والاعتداد بالنَّفس والتنافس والاستمتاع بالسلطة والإيروتيكيَّة والإصرار على كلمة «**لا**». أمَّا نساء جيلي، فكنَّا نتشبَّث بالفرص المتاحة، بين الحين والآخر، الفرص التي لم تكُن كثيرة. وعلى الرَّغم من ذلك، فقلَّما وضعنا مُخطَّطًا للفوز.

وعلى الرَّغم من غياب الطموح، ابتسم لي الحظّ. لم يكُن أحد، ولا سيَّما أنا، يتوقَّع النجاح الفوريّ الذي لاقَته روايتي الأولى، ثمَّ باقي كتبي. ربَّما كانت جدَّتي مُحِقَّةً عندما تنبَّأت لحفيدتها بأن تنعم بالحظّ السَّعيد، لأنَّها وُلِدَت وعلى ظهرها علامةٌ تشبه النجم. على مدى أعوام، فكَّرتُ أنَّ الأمر سوف يجعلني مُميَّزة، ولكن ثبَت أنَّه أمرٌ شائعٌ جدًّا، ويزول بمضي الوقت.

لطالما كنتُ منضبطةً في العمل، لأنَّ تحذير جدَّتي، حين قالَت «إنَّ كل أوقات الفراغ أوقات ميِّتة»، قد ترك في نفسي أثرًا شديدًا. كانت تلك هي القاعدة التي اتَّبعتُها طوال عقود، ولكنِّي تعلَّمتُ أنَّ الفراغ قد يكون أرضًا خصبةً يزهر فيها الإبداع. ما عدتُ أعذِّب نفسي بالانضباط المفرط كما في الماضي، بل صرتُ أكتب من أجل اللّذة التي يُدخِلها على نفسي سرد القصَّة، كلمةً إثر كلمة، خطوةً تلو خطوة، وأستمتع بالعمليَّة من دون تفكيرٍ في النتيجة. لا أشدّ وثاق نفسي إلى مقعدٍ طوال أيَّام كاملة، بتركيزٍ يليق بكاتب عدل، بل صرتُ أتمكَّن من الاسترخاء، لأنَّني أنعم بالمزية النادرة الآتية: فلي قرَّاءٌ أوفياء وناشرون ممتازون لا يحاولون التأثير على عملي.

أكتب عمَّا يهمّني، بإيقاعي أنا. وفي ساعات الفراغ، التي كانت تقول عنها جدَّتي إنَّها ساعات مُهدَرة، تغدو أشباح المخيّلة شخصيَّاتٍ مُحدَّدة، فريدة، لها صوتها الخاصّ، مستعدة لسرد حياتها عليَّ لو منحتُها الوقت الكافي. أشعر بهم يتحلَّقون حولي، بيقينٍ مطبق، حتى أندهش لأنَّ أحدًا سواي لا ينتبه إليهم. مكتبة سُر مَن قرأ

أمَّا التغلُّب على الانضباط الذي يبلغ حدّ الهوس، فلم يكُن بالشيء الذي تمكَّنتُ من تحقيقه بين عشيةٍ وضحاها، بل إنَّه استغرق أعوامًا. في أثناء العلاج، وخلال تجربتي الرُّوحيَّة البسيطة، تعلَّمتُ أن أرسِل الأنا العليا إلى الجحيم، وأطلب منها أن تتركني في سلام، فأنا أودُّ الاستمتاع بحرِّيَّتي. تختلف الأنا العليا عن الضمير، فالأولى تُنزِل بنا العقاب، والثانية تُرشِدنا. ما عدتُ أعير انتباهًا لمُلاحِظ العمَّال الذي يعيش في داخلي ويفرض عليَّ الإنجاز والاجتهاد بصوت جدي. لقد انتهى السباق الشاقّ على الطريق الصاعدة، والآن صرتُ أتنزَّه بهدوءٍ في منطقة البديهة، التي تبدو لي أصلح أجواءٍ للكتابة.

صدرَت روايتي الأولى، **بيت الأرواح**، عام 1982، في أواخر «البوم» (Boom)[1] الذي شهدَته آداب أميركا اللَّاتينيَّة، كما أُطلِق على تلك الكتب البديعة التي وضعَتها مجموعةٌ من مشاهير الكُتَّاب في القارة. كان تيار «البوم» ظاهرةً مُذكِّرة. أمَّا كاتبات أميركا اللَّاتينيَّة، فقوبلن بتجاهل النقَّاد والأساتذة وطلَّاب الأدب ودور النشر، التي كانت تنشر أعمال الكاتبات في طبعاتٍ هزيلة، بلا دعايةٍ ولا توزيعٍ ملائم، لو نشرَتها من الأساس. ولكنَّ النجاح الذي لاقته روايتي كان مفاجئًا. قيل إنَّها اقتحمَت عالَم الأدب اقتحامًا. يا للعجب! وفجأةً، بات من الواضح أنَّ أكثر قرَّاء الروايات من النساء. كانت سوقًا مهمَّةً تنتظر من دور النشر أن تنشط. وقد فعلَت، وبعد ما يربو على الثلاثين عامًا، صارَت روايات النساء تُنشَر بقدر روايات الرجال.

ولقد حانت اللحظة لتكريم كارمِن بالسِلز بعد وفاتها، وهي امرأةٌ أخرى من أولئك النساء العصيَّات على النسيان اللَّاتي ساعدنني على المضيّ قُدمًا في درب الحياة. كارمِن، الوكيلة الأدبيَّة الشهيرة من برشلونة، التي كانت هي الأمّ الرؤوم للغالبيَّة العظمى من كبار كُتَّاب «البوم»، وغيرهم المئات من كُتَّاب اللُّغة الإسبانيَّة. بنظرها الثاقب، رأت شيئًا من الجدارة في روايتي الأولى، وبفضلها نُشِرَت الرواية في إسبانيا أوَّلًا، ثم في بلدانٍ أخرى كثيرة. وأنا مدينةٌ لها بما حقَّقتُ في هذه المهنة الغريبة، مهنة الكتابة.

---

(1) «البوم» الأميركيّ اللاتينيّ: تيَّار أدبيّ وثقافيّ ظهر في حقبة الستينيَّات والسبعينيَّات، ويرتبط ارتباطًا وثيقًا بعددٍ من الكُتَّاب مثل البيرواني، ماريو بارغاس يوسا والكولومبيّ غابرييل غارسيا ماركيز والأرجنتينيّ خوليو كورتاثار والمكسيكيّ كارلوس فوينتيس. (المترجم)

كنتُ مجهولةً كتبَت روايتها الأولى في مطبخ شقَّتها بكاراكاس، فدعَتني كارمِن إلى برشلونة لتقديم الكتاب. لم تكُن تعرف عنِّي شيئًا، غير أنَّها عاملَتني وكأنَّني من المشاهير. أقامَت حفلًا مشهودًا في بيتها كي تقدِّمني للنخبة الفكريَّة في المدينة: النقَّاد، والصحافيِّين، والكُتَّاب. لم أكُن أعرف أحدًا، وإنَّما ذهبتُ بثياب «هيبي»، وشعرتُ بأنَّني لا أنتمي إلى ذلك المكان على الإطلاق، ولكنَّ كارمِن هدَّأت من روعي بعبارةٍ واحدة: «لا أحد هنا يعرف أكثر ممَّا تعرفين، جميعنا نرتجل». ذكَّرني قولها بالنصيحة التي كان العمّ رامون يُكرِّرها عليَّ: «تذكَّري بأنَّ جميعهم أشدّ منكِ خوفًا».

كان ذلك العشاء هو المناسبة الوحيدة التي رأيتُ فيها الكافيار الروسيّ يُقدَّم بمغرفة الحساء. على المائدة، نهضَت رافعةً كأسها لتشرب نخب كتابي. وفي تلك اللحظة على وجه التَّحديد، انقطع التيَّار الكهربائيّ، وغرقنا في ظلامٍ دامس. «لقد حضرَت أرواح تلك التشيليَّة لتشرب نخب الكتاب معنا. في صحتكم!»، قالت من دون أن تتردَّد لحظة، وكأنَّها قد استعدَّت لذلك.

كانت كارمِن ناصحتي وصديقتي. قالَت لي إنَّنا لسنا صديقتَيْن، بل إنَّني أنا عميلتها وهي وكيلتي، ولا يجمعنا إلَّا صلة تجاريَّة، ولكن ذلك أبعد ما يكون عن الحقيقة. (كما لم تكُن مُحِقَّةً عندما قالَت إنَّها تودّ لو كانت «امرأةً جمادًا»، إذ لا يسعني تخيُّل شخصٍ أقلّ منها ملائمةً لذلك الدور). وقفَت كارمِن بجواري في اللَّحظات الأكثر أهمِّيَّة، بدءًا بمرض پاولا، وصولًا إلى الزيجات والطلقات، وظلَّت حاضرةً على الدوام، تدعمني دعمًا غير مشروط.

كانت تلك المرأة القادرة على التصدّي لأشدّ الناس شغبًا تطلب مشورة مُنجِّمتها، وتؤمن بالوسطاء الروحانيِّين والغورو[1] والسحر، وتشعر بالتأثُّر وتبكي بسهولة. كانت تبكي بغزارةٍ إلى الحدّ الذي جعل غابرييل غارسيا ماركيز يهديها واحدًا من كتبه قائلًا: «إلى كارمِن بالسيلز، الغارقة في الدموع».

كانت سخيَّةً إلى حدّ الجنون. أرسلَت إلى أمِّي في تشيلي ثمانين وردةً بيضاء عندما أتمَّت الثمانين من العمر، وأرسلَت إلى العمّ رامون تسعة وتسعين وردةً بمناسبة عيد ميلاده. لم تنسَ ذلك التاريخ قطّ، لأنَّ كليْهما وُلِد في اليوم نفسه من أيَّام أغسطس. ذات مرَّة، أهدَتني طاقمًا كاملًا من حقائب ڤيتون، لأنَّها رأت حقائبي عاديَّةً وقديمة. سُرِق جميعها في مطار كاراكاس عندما استخدمتُها للمرَّة الأولى والأخيرة، ولكنِّي لم أخبر كارمِن، وإلَّا ما تردَّدَت في شراء غيرها من أجلي. كانت ترسل إليَّ الكثير من الشكولاتة، حتى إنَّني ما زلتُ أعثر على بعضها في الأركان الأبعد عن البال في بيتي.

أمَّا رحيل تلك الكاتالانيَّة العظيمة فجأةً، فترك في نفسي لبعض الوقت شعورًا بأنَّني قد فقدتُ سترة النجاة التي أبقَتني طافيةً في بحر الأدب العاصف، ولكنَّ الوكالة التي أسَّسَتها بموهبتها ورؤيتها ما زالَت تعمل بلا تعثُّرٍ تحت إدارة ابنها لويس ميغيل پالومارِس.

على مكتبي صورة كارمِن، لتُذكِّرني بنصائحها: «في متناول أيّ شخصٍ تأليف كتابٍ أوَّل جيِّد، ولكن الكاتب يُمتحَن في الكتاب الثاني وما تلاه من كتب. وأنتِ سوف تُحاكَمين بقسوةٍ بالغة، لأنَّنا، نحن

---

(1) غورو: في إطار الهندوسيَّة، تعني المرشد الرُّوحيّ. (المترجم)

النساء، لا يُغفَر لنا النجاح. اكتبي ما شئتِ، ولا تسمحي لأحدٍ بالتدخُّل في عملكِ ولا في مالكِ. عاملي ابنَيْك وكأنَّهما أميران، فهما يستحقّان. تزوَّجي، فالزوج سترة، مهما بلغ من الحماقة».

وكما حذَّرتَني كارمِن، استغرقتُ عقودًا حتى نلت التَّقدير الذي كان يعدّه أيّ كاتب رجل أمرًا مفروغًا منه لو كان مكاني. في تشيلي، وجدتُ صعوبةً في الفوز بقبول النقَّاد، صعوبةً أكبر من تلك التي واجهَتني في باقي البلدان، وإن لمست حبَّ القرَّاء دائمًا. غير أنَّني لا أضمر أدنى شعورٍ بالضغينة نحو أولئك النقاد، لأنَّها سِمَةٌ من سمات البلد، حيث يُسحَق أيّ شخصٍ يرتقي بنفسه فوق المُتوسِّط، ما لم يكُن لاعب كرة قدم. لدَيْنا اسمٌ وفعلٌ لوصف ذلك الأمر: «chaqueteo» و«chaquetear». أي «الأخذ بسترة» الشخص الجريء وجذبه إلى الأسفل. وما دامت الضحيَّة امرأة، تتضاعف القسوة والسرعة لئلَّا تشعر المرأة بالخيلاء. لو أنَّهم لم «يأخذوا بسترتي»، لأُصِبت بالذعر، فذلك يعني أنَّني بلا أدنى أهمِّيَّة.

بعد أن نشرت عشرين كتابًا، تُرجمَت إلى ما يربو على الأربعين لغة، قال كاتبٌ تشيليٌّ، لا أذكر له اسمًا، إنَّني لست حتى كاتبة، بل كُوَيتِبة، وذلك بمناسبة ترشيحي لجائزة الأدب الوطنيَّة. سألَته كارمِن بالسِلز عمَّا إذا كان قد قرأ أحد الأعمال التي كتبتُها ليبني عليه ذلك الرأي، فأجابها بأنَّه لن يفعل ولو على جثّته. في عام 2010، وبدعم أربعةٍ من رؤساء الجمهوريَّة سابقين، وعددٍ من الأحزاب السياسيَّة، ومجلس النواب، فزتُ بتلك الجائزة، وأخيرًا حظيتُ بشيءٍ من الاحترام بين نقَّاد بلدي. عند ذاك، أرسلَت كارمِن إليَّ خمسة كيلوغراماتٍ من الشكولاتة المحشوَّة بالبرتقال المُحلَّى بالسُّكَّر، الشكولاتة الأثيرة عندي.

كانت ماي وِست، نجمة السينما قديمًا، تقول إنَّ المرأة لا تهرم أبدًا إلى الحدّ الذي يمنعها من تجديد شبابها. الحبّ يُجدِّد الشباب، لا شكَّ في ذلك. وهأنذا أعيش قصَّة حبٍّ جديدة. ربَّما كان ذلك هو السَّبب الذي يجعلني أشعر بالصحَّة والحماسة، كما لو كنتُ أصغر بثلاثين عامًا. في حالتي على وجه التَّحديد، يتدفَّق الإندورفين بغزارة، هرمون السعادة. يبدو أنَّ كلَّنا بوجه العموم نشعر وكأنَّنا أصغر عمرًا ممَّا نحن عليه، ونُفاجأ متى ذكَّرنا التقويمُ بأنَّ عامًا آخر أو عقدًا آخر قد ولَّى. سرعان ما ينسلّ الزمن من بين أيدينا. أنسى عمري إلى الحدِّ الذي يتركني حائرةً متى قدَّم لي أحدهم مقعده على متن الحافلة.

أشعر بأنَّني شابَّة، فأنا ما زلتُ أستطيع التمرُّغ على الأرض مع الكلبتَيْن، والهرب لتناول المُثلَّجات، وتذكُّر ما تناولت على الفطور، وممارسة الغرام ممزوجًا بالضحك. ولكنِّي، من باب الحرص، لا أمتحن قدراتي، بل أقبل مواطن قصوري في صمت. أنجز أمورًا أقل ممَّا كنتُ أنجزه في ما مضى، وأقيس وقتي، لأنِّي أستغرق وقتًا أطول في القيام بأيِّ مهمَّة. أرفض الالتزامات المُزعِجة، تلك التي كنتُ أشارك فيها من قبل اضطرارًا، كالأسفار غير الضروريَّة واللقاءات الاجتماعيَّة التي يحضرها أكثر من ثمانية أشخاص، حيث أختفي عند مستوى خصر الآخرين. أتجنَّب الأطفال الصاخبين والكبار من أصحاب المزاج العكر.

شيءٌ طبيعيٌّ أن تأتي الخسائر مع العمر. إذ نفقد الأشخاص والحيوانات والأمكنة والطاقة التي كانت لا تنضب في ما مضى. حتى السبعين من العمر كان في وسعي الموازنة بين ثلاث أو أربع مهمَّاتٍ في آنٍ واحد، والعمل على مدى أيام، مع الاكتفاء بالحدّ الأدنى من النوم، والكتابة لعشر ساعاتٍ في جلسةٍ واحدة. كنتُ أوفر حظًّا من المرونة والقوَّة، قادرةً على الاستيقاظ

فجرًا، والقفز رافعةً قدمَيَّ في الهواء، ثمَّ الهبوط بقدرٍ من الرشاقة على الأرض وأنا مستعدَّة للاغتسال وبدء اليوم الجديد. التقلُّب في الفراش؟ والآحاد الكسولة؟ والقيلولة عند منتصف النهار؟ لا شيء ممَّا سبق ذكره كان يصلح لي. الآن أجرِّر نفسي حتى أقوم من الفراش بحرصٍ لئلَّا أزعج رفيقي والكلبتَيْن. لديَّ مسؤوليَّةٌ واحدة، الكتابة. غير أنَّني أستغرق في البدء دهرًا. ولا أملك الاستمرار في الكتابة أطول من أربع أو خمس ساعات، الأمر الذي أنجح في إنجازه بالكثير من القهوة وقوَّة الإرادة.

لطالما وُجِدَت الرَّغبة في استمرار الشباب. ويُعَدّ ينبوع الشباب الأبديّ، الذي ورد ذكره في كتابات هيرودت، في القرن الخامس قبل ميلاد المسيح، أوَّل إشارةٍ معروفةٍ إلى تلك الرَّغبة. أمَّا الإسبان والبرتغاليُّون الجشعون الذين غزوا أميركا اللَّاتينيَّة في القرن السادس عشر، فكانوا يبحثون عن الدورادو، مدينة الذهب الخالص حيث يلهو الأطفال بكريَّات الزمرُّد والياقوت، وعن ينبوع الشباب، الذي يمحو ماؤه العجائبيّ آثار الشيخوخة. لم يعثروا على أيٍّ منهما. والآن، ما عاد أحدٌ يؤمن بالدورادو، ولكن سراب الشباب الأبديّ ما زال حاضرًا، مدعومًا بترسانةٍ من المستحضرات لمن يقدر على دفع الثمن، بما في ذلك الأدوية والفيتامينات وصنوف الحمية الغذائيَّة والتمارين والعمليَّات الجراحيَّة، وحتى عبوات المشيمة وحقن البلازما البشريَّة التي كان دراكولا سيجدها وجبةً شهيَّة. أفترض بأنَّ لكلّ هذا فائدةً تُرتجَى، والدليل أنَّنا صرنا نعمِّر أطول من الأجداد بثلاثين عامًا، ولكنَّ العيش أطول لا يعني العيش أفضل. بل إنَّ الشيخوخة المُمتدَّة تُمثِّل تكلفةً اجتماعيَّةً واقتصاديَّةً هائلة على مستوى الفرد والكوكب.

يقول ديڤيد سنكلير، عالم الأحياء وأستاذ علم الوراثة لدى مدرسة طبّ هارڤارد الذي وضع عددًا من المُؤلَّفات، إنَّ التقدُّم في السنّ مرضٌ يجب علاجه على هذا الأساس. وعن طريق التجارب التي أجراها على مستوى الجزيء، تمكَّن من تعطيل عمليَّة التقدُّم في السنّ لدى الفئران، وعكس العمليَّة في بعض الحالات. يقول بوجود التكنولوجيا التي سوف تسمح لنا بتجنّب أعراض الشيخوخة ومتاعبها في المستقبل القريب، وذلك عن طريق التغذّي على نباتاتٍ وتناول أقراصٍ على الفطور. نظريًّا، يمكننا العيش حتى نبلغ المئة وعشرين عامًا، بصحةٍ جيِّدة وذهنٍ صافٍ.

في الوقت الراهن، وحتى يشرع سنكلير في إجراء التجارب على البشر بعد الفئران، ربَّما كان سرّ الشباب الطويل يكمن في الأسلوب، حسبما كانت تقول أمّي، الأمر الذي أكَّدَته صوفيا لورين، ربَّة السينما الإيطاليَّة من الخمسينيَّات وحتى السبعينيَّات. ذكرتُ صوفيا لأحفادي (الذين صاروا جميعًا في طور النضج)، فلم تكُن لديْهم أدنى فكرة عمَّن تكون، ولكنّي لا أعجب لذلك، فهم لا يعرفون حتى من يكون غاندي. تعرَّفتُ بها في دورة الألعاب الأوليمبيَّة الشتويَّة، في إيطاليا، عام 2006، عندما حملنا راية الأولمبياد في الإستاد، أنا وهي وست نساءٍ أخريات.

برزَت صوفيا وسط باقي نساء المجموعة كما يبرز الطاووس وسط الدجاجات. لم يمكنني رفع عينَي عنها، وهي التي كانت رمزًا جنسيًّا لحقبةٍ من الزمن، وما زالَت رائعة الجمال في أواخر السبعينيَّات. ما الوصفة التي سمحَت لها بالحفاظ على الشباب والجاذبيَّة التي لا تُقاوَم؟ في لقاءٍ على شاشة التلفزيون، قالَت صوفيا إنَّ الوصفة تكمن في السعادة، وإنَّ «كلَّ ما ترونه، أدين به لمكرونة التايَّاريني». وفي لقاءٍ

آخر، أضافَت أنَّ الحيلة تكمن في الوضعيَّة الملائمة. «أسير باستقامةٍ طوال الوقت، ولا أُحدِث الأصوات الخليقة بالعجائز، فلا ألهث ولا أتذمَّر ولا أسعل ولا أجرِّر قدمَيّ على الأرض». الأسلوب شعارها. ولقد حاولتُ العمل بنصيحة صوفيا في ما يتعلَّق بالوضعيَّة. أمَّا حماقة مكرونة التاياريني، فجرَّبتُها، وزاد وزني خمسة كيلوغرامات.

لا عيب في الشيخوخة، كلُّ ما هنالك أنَّ الطبيعة الأمّ تستبعد كبار السنّ. فلا نكاد نتجاوز سنّ الإنجاب، ونربِّي صغارنا، حتى يصبح الاستغناء عنَّا ممكنًا. في بعض الأمكنة النائية، مثل بعض قرى بورنيو الافتراضيَّة، أعتقد بأنَّ التقدُّم في السنّ يُعَدُّ مُبجَّلًا، ولا أحد يرغب في الشباب، بل يُفضِّل المرء بلوغ الشيخوخة حتى يفوز بالاحترام، الأمر الذي لا ينطبق على هذه الأنحاء. في الوقت الحالي، صار التحيُّز ضدّ الشيخوخة مرفوضًا مثلما كان يُستهجَن التمييز على أساس الجنس والعرق منذ عقدٍ من الزمان، ولكن أحدًا لا يلقي بالًا. تُوجَد صناعةٌ هائلة من منتجات علاج الشيخوخة، وكأنَّها عيبٌ من عيوب الشخصيَّة.

في ما مضى، كان البلوغ يبدأ في العشرين، والنضج في الأربعين، والشيخوخة في الخمسين. أمَّا اليوم، فصارت المُراهَقة تمتدّ حتى أواخر الثلاثينيَّات أو الأربعينيَّات، بينما يبدأ طور النضج في الستِّين على وجه التقريب، والشيخوخة في أوائل الثمانينيَّات. لقد امتدَّ طور الشباب مرضاةً لأولئك الذي عُرِفوا باسم baby-boomers، الجيل الذي وُلِد في الولايات المتَّحدة عقب الحرب العالميَّة الثانية، ذلك الذي حدَّد عددًا كبيرًا من جوانب الثقافة بما يلائمه طوال نصف القرن الأخير.

على كلِّ حال، حتى وإن تشبَّثنا بأمل الشباب، فالغالبيَّة العظمى من أولئك الذين هم في مثل سنِّي تمضي بخطًى واسعة نحو الطعون

في السنّ، ولسوف تنتهي حالنا جميعًا بالموت قبل القضاء على التحيّز ضدّ الشيخوخة.

لن يسعفني الوقت لأغتنم ذلك التقدُّم العلميّ. وعلى الرَّغم من ذلك، فمن المُرجَّح أن يبلغ أحفادي المئة عامٍ وهم بخير حال. قنعتُ بالشيخوخة في بهجة، ومن أجل هذا وضعتُ لنفسي بعض القواعد: ما عدتُ أقدِّم التنازلات بسهولة. وداعًا للكعب العالي، والحمية الغذائيَّة، والصبر على الحمقى. كما تعلَّمتُ أن أقول «لا»، وأرفض ما لا يروقني من دون شعورٍ بالذنب. حياتي الآن أفضل، ولكن استراحة المحارب لا تهمّني، بل أفضِّل الاحتفاظ بشيءٍ من الوهج في ذهني ودمي.

فضلًا عن وضعيَّة الجسد ومكرونة التايَّاريني، اللتيْن توصي بهما صوفيا لورين، فالسرّ الذي جعلني أنعم بحياةٍ كاملة، وشيخوخةٍ سعيدة، هو الاقتداء بصديقتي أولغا موراي. تخيَّلوا شابةً في عمر الرابعة والتسعين، بلا نظَّارة ولا سمَّاعات أذنٍ ولا عكاز، ترتدي ثيابًا صارخة الألوان، وتنتعل حذاءً رياضيًّا، وما زالت تقود السيَّارة، ولكن إلى الأمام فحسب، من دون أن تبدِّل حارةً بأخرى. إنَّ تلك السيِّدة ذات الجسد الضئيل، المفعمة بالطاقة، الشغوف، قد وضعَت نصب عينَيْها غايةً تهدي مصيرها، وتملأ أيَّامها، وتحافظ على شبابها.

لها قصَّة مدهشة، وإن كنتُ مُضطرَّةً إلى اختصارها. برجاء البحث عنها عَبْر الإنترنت لمعرفة المزيد. الأمر يستحقّ العناء. ترمَّلَت أولغا وهي في أواخر الستينيَّات، فقرَّرَت السفر والتجوُّل في جبال نيبال. وهناك سقطَت أرضًا، فانكسر كاحلها، واضطُرّ الشيرپا[1] الذي كان برفقتها إلى

(1) شيرپا: أهل نيبال الذين يسكنون جبال الهيمالايا ووديانها. (المترجم)

حملها في سلَّةٍ على عاتقه وصولًا إلى أقرب القرى، التي اتَّضح أنَّها قريةٌ في غاية الفقر والانعزال. وهناك، بينما هي في انتظار وسيلة مواصلاتٍ تحملها إلى المدينة، حضرَت مهرجانًا أعدَّ القرويُّون خلاله الطعام بالنزر اليسير الذي يملكون، وارتدوا أفضل ثيابهم، وتعالَت الموسيقى، ورقص المشاركون. سرعان ما وصلَت حافلات آتية من المدينة، وعلى متنها وكلاء حضروا لشراء بناتٍ بين السادسة والثامنة من العمر، إذ كان الآباء يبيعون البنات عجزًا منهم عن إطعامهنَّ.

كان الوكلاء يدفعون ما يعادل ثمن عنزَتَيْن أو خنزيرٍ صغير، ويأخذونهنَّ مُتعهِّدين للآباء بأنَّ بناتهم سوف يعشنَ مع أسراتٍ كريمةٍ ويلتحقنَ بالمدارس ويأكلنَ الطيب من الطعام. ولكن، في واقع الأمر، كانت البنات يُبَعن بوصفهنَّ كامالاري، الأمر الذي يُعَدّ شكلًا من أشكال الخدمة، ويضاهي العبوديَّة. ذلك أنَّ الكامالاري يعملنَ بلا راحة، وينمنَ على الأرض، ويأكلنَ بقايا صحون الأسرة، ويُحرَمنَ من التعليم والصحَّة والحرِّيَّة، ويلقينَ المعاملة السَّيِّئة. وأولئك هنَّ المحظوظات. أمَّا الأخريات، فيُبَعنَ للمواخير.

أدركَت أولغا أنَّها حتى لو استخدمَت كلَّ ما تحمل من النقود لشراء صغيرتَيْن، فلن يمكنها ردَّهما إلى أسرتَيْهما، وإلَّا بيعتا مُجدَّدًا، ولكنَّها عقدَت العزم على مساعدة الكامالاري، وصارت تلك مهمَّتها في الحياة. عرفَت أنَّ الواجب يملي عليها الاعتناء بالبنات اللاتي تفلح في إنقاذهنَّ طوال عشرين عامًا، حتى يتسنَّى لهنَّ الاعتماد على أنفسهنَّ. وهكذا عادَت إلى كاليفورنيا وأنشأت منظَّمةً خيريَّة، مُؤسَّسة شباب نيبال، (www.nepalyouthfoundation.org)، كي توفِّر المسكن والتعليم والخدمات الصحِّيَّة للبنات ضحايا الاستغلال. على وجه

التقريب، أنقذَت أولغا خمس عشرة ألف صغيرة من الاشتغال بالخدمة المنزليَّة، ونجحَت في تغيير ثقافة البلد. وبفضلها، حظرَت حكومة نيبال ممارسة الكامالاري.

أولغا لديْها برامج أخرى رائعة بالقدر نفسه، وعددٌ من دور رعاية الأطفال اليتامى أو المهجورين، والمدارس، وعيادات التغذية المقامة في عدَّة المستشفيات، حيث تتلقَّى الأمَّهات تدريبًا على تغذية أسراتهم بالموارد المتاحة وتقديم غذاءٍ متوازن. رأيتُ صورًا لما قبل وما بعد، يظهر فيها طفلٌ يتضوَّر جوعًا، لحمٌ على عظم، عاجزٌ عن السَّيْر، وبعد شهرٍ واحدٍ يظهر وهو يلعب بالكرة.

أقامَت مؤسَّسة أولغا قريةً نموذجيَّةً في ضواحي كاتماندو، مُلحقةً بمدارس ومشاغل وبيوتٍ مُخصَّصةٍ لصغارٍ في حالاتٍ حرجة. أمَّا اسم القرية، فيلائمها على أكمل وجه: أولغاپوري، أي «واحة أولغا». كم أودُّ لو استطعتم رؤية المكان! إنَّه المكان الأوفر حظًا من البهجة في الكوكب بأسره. في نيبال، آلافٌ من الأطفال الذين يهيمون بتلك المرأة المدهشة عشقًا، وأنا لا أبالغ لو قلت آلاف الأطفال. فهي كلَّما وصلَت إلى كاتاماندو، وجدَت حشدًا من الصغار والشباب الذين يحضرون إلى المطار مُحمَّلين بالبالونات وأكاليل الأزهار لاستقبال أمّهم.

في هذا العمر المُتقدِّم، تنعم أولغا بالصحَّة والطاقة التي تسمح لها بالسفر بين نيبال وكاليفورنيا مرتَيْن كلَّ عام، (في رحلة طيرانٍ تستغرق ست عشرة ساعة، مضافةً إليها ساعات «الترانزيت» والانتظار الطويلة في المطارات)، فضلًا عن العمل بلا انقطاعٍ لتمويل مشروعاتها والإشراف عليها. تتحدَّث عن صغارها، فتبرق عيناها الزرقاوان شغفًا. تُرَى باسمةً طوال الوقت، سعيدةً طوال الوقت. لم أسمعها يومًا تشكو حالها أو تلقي

باللَّائمة على الآخرين، بل إنَّها تفيض بالطيبة والامتنان. أولغا موراي بطلتي. ومتى كبرتُ، أريد أن أصبح مثلها.

وددتُ لو كان لي نهدان ممتلئان وساقان طويلتان مثل صوفيا لورين، ولكنِّي لو خُيِّرت، لآثرتُ الهبات التي ينعم بها عددٌ من الساحرات الطيِّبات اللَّاتي أعرفهنَّ: الغاية، والرحمة، والمزاج الرائق.

يقول الدلاي لاما إنَّ الأمل الوحيد في السلام والرخاء يكمن بين أيدي نساء الغرب. أعتقد بأنَّه يخصّهنَّ بتلك الميزة لأنَّهنَّ الأوفر حظًّا من الحقوق والموارد، ولكنِّي ما كنتُ أستثني باقي نساء العالَم. فالمهمَّة تقع على عاتقنا جميعًا، نحن النساء.

لأوَّل مرَّةٍ في التاريخ، نجد ملايين النساء المُتعلِّمات، المُطَّلِعات، المُتَّصِلات بعضهنَّ ببعض، المُتأهِّبات لتغيير وجه الحضارة التي نعيش فيها، النساء اللائي تتوافر لهنَّ الرعاية الصحِّيَّة. لسنا وحيدات، بل إنَّ الكثير من الرجال ماضون برفقتنا، أكثرهم من الشباب: الأبناء والأحفاد. أمَّا الشيوخ فلا علاج لهم. ببساطة، لا بدَّ من الانتظار حتى يموتوا رويدًا رويدًا. معذرة، جاء قولي على قدرٍ يسيرٍ من القسوة، فليس جميع الشيوخ يمثِّلون حالاتٍ مستعصية، بل إنَّ بعضهم مستنير، وبعضهم حسن النوايا، وأولئك يملكون القدرة على التطوُّر. آهٍ! أمَّا العجائز فقصَّةٌ أخرى.

إنَّنا في عصر الجدَّات الجريئات، نحن اللَّاتي نمثِّل القطاع الأسرع نموًّا في تعداد السكان. نحن النساء اللَّاتي عمَّرنا طويلًا، ولا نملك ما نخسره، ولهذا لا تسهُل إصابتنا بالذعر. في وسعنا الحديث بوضوحٍ لأنَّنا لا نرغب في المنافسة، ولا مرضاةً الآخرين، ولا تحقيق

الشعبيَّة. نعرف القيمة الهائلة للصداقة والتعاون. ولقد ضقنا بحال البشريَّة والكوكب. والآن، باتت المسألة رهنًا بالاتِّفاق في ما بيننا، حتى نزلزل العالَم زلزالًا قويًّا.

التقاعد مسألةٌ أخرى تتزايد أهمِّيَّتها لدينا بمضيّ الوقت، لأنَّ الغالبية العظمى منَّا، نحن النساء، تعمل خارج البيت. أمَّا الأخريَّات، ربَّات البيوت، فلا يتقاعدنَ ولا يهدأن أبدًا. باللُّغة الإسبانيَّة، يُسمَّى التقاعد «jubilación»، وهو مُصطلَحٌ مُشتَقٌّ من «júblio» (أي البهجة أو السرور)، استنادًا إلى الرأي القائل بأنَّها الفترة المثاليَّة، التي يستطيع المرء خلالها أن يفعل ما يحلو له. ليْتها كانت هكذا. في كثيرٍ من الأحيان، لا يتحقَّق للمرء ذلك عندما لا يسمح له الجسد والميزانيَّة بأن يفعل ما يشاء. وفوق ذلك، ثبت أنَّ الفراغ نادرًا ما يصنع السعادة.

في حالة الرجال، ربَّما كان التقاعد بداية النهاية، لأنَّ الرجل يحقِّق ذاته ويقدِّرها بالعمل، ويستثمر فيه كلّ نفسه، ومتى انتهى العمل، لا يبقى له سوى أقلّ القليل، فينهار الرجل عقليًّا وعاطفيًّا. عند ذاك، تبدأ فترة الخوف من الإخفاق، وفقدان الموارد الاقتصاديَّة، والبقاء وحيدًا... وقائمة المخاوف تطول. ما لم يكُن للرجل رفيقٌ أو رفيقةٌ ترعاه، وكلبٌ يهزّ ذنبه من أجله، فقد انتهى أمره. أمَّا النساء، فنحن أفضل حالًا، لأنَّنا نربِّي صلاتٍ تجمعنا بالأقرباء والأصدقاء إلى جانب العمل، زدْ على ذلك أنَّنا أكثر اجتماعيَّةً ولديْنا اهتمامات أكثر تنوُّعًا بالقياس إلى الرجال. وعلى الرَّغم من ذلك، فحتى نحن يغمرنا الخوف من تلك الهشاشة الخليقة بأعوام العمر. لقد عمَّمتُ في حديثي، ولكنَّكم تفهمون مقصدي.

يقول چيرالد ج. چامپولسكي، طبيب النفس الشهير الذي كتب ما يربو على العشرين «بيست سيلر» في علم النفس والفلسفة، إنَّ قابليَّة المرء للسعادة تتأثَّر بالجينات الوراثيَّة بنسبة 45%، وبالأوضاع المحيطة بنسبة 15%، ما يعني أنَّ كلًّا منَّا يُحدِّد نسبة الـ 40% المُتبقِّية بما يتَّفق ومعتقداته وسلوكه في الحياة. وفي عمر الخامسة والتسعين، ما زال چيرالد ج. چامپولسكي يتلقَّى الحالات ويكتب ويذهب إلى صالة الألعاب الرياضيَّة خمس مرَّاتٍ في الأسبوع ويشعر بالامتنان لليوم الجديد كلَّما أفاق من نومه في الصباح ويتعهَّد بأن يعيشه في سعادةٍ من دون أن تقف حالته البدنيَّة عثرةً في طريقه. لا يجب أن يُمثِّل عمر المرء عائقًا يمنعه من البقاء مفعمًا بالطاقة، مبدعًا، ويحول دونه ودون المشاركة في العالَم.

الآن وقد صار عمر الإنسان أطول، فأمامنا عقدان نُقرِّر فيهما غايتنا ونُضفِي مغزى على الوجود المُتبقِّي لنا، كما فعلَت أولغا موراي.

يُبشِّر چامپولسكي بالحبّ على اعتباره خير علاج: بذل الحبّ بسخاء. لا بدّ للمرء أن ينسى الأذى وينفض السلبيَّة عن نفسه. فالحقد والغضب يستنزفان من الطاقة أكثر ممَّا تستهلك المغفرة. إنَّ مفتاح السعادة يكمن في مغفرة المرأة لنفسها وللآخرين. قد تكون الأعوام الأخيرة أفضل أعوام حياتنا، ما دمنا قد اخترنا الحبّ بدلًا من الخوف، هكذا يقول چامپولسكي. لا ينبت الحبّ مثل النبتة البرِّيَّة، وإنَّما يُغرَس، بعنايةٍ بالغة.

يوجِّه الصحافي للدالاي لاما سؤالًا: «هل أنت قادرٌ على تذكُّر حيواتك السابقة؟».

فيجيبه قائلًا: «في عمري هذا، يشقّ على المرء تذكُّر ما جرى بالأمس».

كان العمّ رامون، زوج أمّي، رجلًا نشيطًا، بارع الذكاء، حتى ترك منصب مدير الأكاديميَّة الدبلوماسيَّة في تشيلي. وعند ذاك، بدأ في التدهور. كان اجتماعيًا جدًّا، جمعَته الصداقة بعشرات الأشخاص، ولكنَّهم إمَّا طعنوا في السنّ وإمَّا ماتوا. كما توفِّي أشقاؤه وابنته. في أواخر أيامه ـ وهو في ذلك العمر المُبجَّل، عمر المئة واثنيْن ـ كان برفقة پانتشيتا، التي أدركها تعبٌ شديدٌ من مزاج زوجها العكر، وصارَت تفضِّل لو ترمَّلَت. شمله بالعناية فريقٌ من النساء اللاتي حافظن عليه كزهرة أوركيديا في دفيئة.

«التقاعد أشدّ أخطائي فداحةً. كنتُ في الثمانين من العمر، ولكنَّه مُجرَّد رقم. كان في مقدوري الاستمرار في العمل عشرة أعوامٍ أخرى»، هكذا اعترف لي ذات مرَّة. لم أرِد تذكيره بأنَّه كان يحتاج إلى المساعدة لعقد رباط حذائه وهو في الثمانين من العمر، ولكنِّي أقرُّ بأنَّ التدهور البطيء الذي عانى منه قد صادف إحالته إلى التقاعد، الأمر الذي رسَّخ قراري بالبقاء نشيطةً إلى الأبد، واستهلاك آخر خليَّةٍ في دماغي وآخر شرارةٍ في روحي، لئلَّا يتبقَّى منِّي شيءٌ متى فارقتُ الحياة. لن أتقاعد، بل إنَّني سوف أجدِّد ذاتي. ولا أفكِّر في اختيار الرصانة. تقول چوليا تشايلد، الطاهية الشهيرة، إنَّ السرّ الذي سمح لها بالعيش طويلًا يكمن في اللحم الأحمر وشراب الچين. صحيحٌ أنَّني أسرف في أشياء أخرى، ولن أتخلَّى عنها، كما لم تتخلَّ عنها چوليا. كانت أمِّي تقول: متى بلغ المرء سنّ الشيخوخة، لم يشعر بالندم إلَّا على ما لم يرتكب من الخطايا، وما لم يقتنِ من الأشياء.

إذا لم يهزمني الخرف (الذي لم يُصَب به أفراد عائلتي المُعمِّرة)، فلا نيَّة عندي لأصبح عجوزًا سلبيَّةً لا رفقة لها إلَّا كلبٌ أو كلبان. إنَّه مشهدٌ مرعب. ولكنَّ المرء لا يجدر به أن يعيش خائفًا، على حدِّ قول چامپولسكي. أُعِدُّ نفسي من أجل المستقبل. بالتقدُّم في العمر، تتضخَّم العيوب والمزايا. ليس صحيحًا أنَّ الحكمة تأتي من تلقاء نفسها بمضي الأعوام، بالعكس، فالشيوخ يصابون بقليلٍ من الجنون في غالب الأحوال. لو طمحنا إلى بلوغ الحكمة، فيجب علينا التدرُّب منذ الشباب. وما دمتُ قادرةً على ذلك، سأجرِّر نفسي صعودًا على الدَّرَج، وصولًا إلى العليَّة التي أكتب فيها، حتى أمضي أيَّامي باستمتاع، وأنا أحكي القصص. لن أقلق حيال الشيخوخة ما وسعني ذلك.

يُقرِّر المجتمع أعتاب الشيخوخة، التي تبدأ قانونًا من سنّ الخامسة والستِّين في الولايات المتَّحدة، السنّ التي يحقّ لنا فيها تلقِّي معاش التقاعد. في ذلك العمر، تتقاعد الغالبيَّة العظمى، وتترك النساء شعرها أبيض اللَّون (لا تفعلن بعد!)، بينما يستعين الرجال بالڤياغرا على ملاحقة الخيالات (يا للهول!). في واقع الأمر، تبدأ عمليَّة التقدُّم في السنّ منذ الولادة، ويعيشها كلٌّ منَّا بطريقته. والثقافة على صلةٍ وثيقةٍ بذلك. فربَّما كانت المرأة الخمسينيَّة غير مرئيَّة في لاس ڤيغاس، وإن ظلَّت على قدرٍ كبيرٍ من الجاذبية في باريس. وربَّما كان الرجل السبعينيّ شيخًا في قريةٍ نائية، ولكن في خليج سان فرانسيسكو، حيث أسكن، تجوب المكان أفواجٌ من الأجداد بدرَّاجاتهم، الأمر الذي قد يكون جديرًا بالثناء لو أنَّهم لم يرتدوا السراويل القصيرة المطَّاطة ذات الألوان الفوسفوريَّة.

يلحّون علينا في ضرورة اتّباع حميةٍ غذائيَّةٍ وممارسة التمارين لنكون في حالةٍ جيِّدة متى تقدَّم بنا العمر. ربَّما كان ذلك صحيحًا، ولكن لا يجب التعميم. لم أكُن رياضيَّةً قطّ، ولذا فأنا لا أجد سببًا يجعلني أقتل نفسي من فرط التمرين في طور مُتأخِّرٍ من الحياة. أحافظ على نفسي في حالةٍ جيِّدة بالتنزُّه مع الكلبتَيْن وصولًا إلى أقرب مقهى لتناول الكاپوتشينو. عمَّر أبواي قرنًا من الزمان بصحَّةٍ جيِّدة، فلم أرَهما قطّ وهما يتفصَّدان عرقًا في صالة الألعاب الرياضيَّة، أو يقتصدان في تناول الطعام. كان كلٌّ منهما يتناول كأسًا أو اثنتيْن من النبيذ على المائدة، وكأسًا من الكوكتيل ليلًا، ويستهلك الكْريم والزبد واللحم الأحمر والبيض والقهوة والحلوى والكربوهيدرات الممنوعة بكلِّ صنوفها، ولكن باعتدال، فلم يزِد وزنهما، ولم يسمع أيٌّ منهما بالكوليسترول يومًا.

تحلَّى أبواي بالحبّ والحرص حتى آخر لحظةٍ في حياتهما الرائعة، ولكنَّ ذلك شيءٌ في غاية الندرة. فعادةً ما تكون المرحلة الأخيرة من مراحل الحياة مأساويَّة، لأنَّ المجتمع غير مُستعِدٍّ للتعامل وطول العمر. مهما بلغ مُخطَّطنا من الحرص، فالموارد لا تكفي حتى النهاية بوجه العموم. تُعَدّ الأعوام الستة الأخيرة في الحياة هي الأفدح ثمنًا، والأشدّ ألمًا، والأكثر عزلةً. إنَّها أعوام الاعتماد على الآخرين. وفي حالاتٍ مهولة الكثرة، تُعَدّ هي أعوام الفقر. قديمًا كانت الأسرة تشمل الشيوخ بالعناية ـ أو بالأحرى نساء الأسرة ـ ولكن في هذا الجانب من العالَم، يكاد ذلك الوضع يختفي. فالبيوت أكثر ضيقًا، والمال أشدّ ندرة، ومتطلّبات العمل والعمل بالغة الكثرة، والأدهى من ذلك أنَّ الأجداد يعمّرون أطول ممَّا ينبغي.

إنَّنا، نحن الذين بلغنا العقد الثامن من العمر، نشعر برعبٍ من تمضية أيَّامنا الأخيرة في دارٍ من دور الرعاية، بالأقمطة، واقعين تحت تأثير الأدوية، ووثاقنا مشدودٌ إلى كرسيٍّ مُتحرِّك. ولكنِّي أودُّ لو متُّ قبل أن أحتاج إلى المساعدة على الاغتسال. أنا وصديقاتي نحلم بإنشاء مجتمع، بفرض أنَّنا سوف نترمَّل ذات يوم، لأنَّ الرجال أقصر عمرًا. (أفضِّل ألَّا أتخيَّل نفسي في تلك الحالة، لأنَّني تزوَّجتُ لتوِّي، والتَّفكير في الترمُّل يُشعِرني بالكآبة). على سبيل المثال، يمكننا شراء قطعة أرضٍ في تلك الأنحاء، في موقعٍ لا يبعد كثيرًا عن أحد المستشفيات، وبناء قمراتٍ فرديَّةٍ مُزوَّدةٍ بخدماتٍ مُشترَكة، مكانٌ يمكننا الاحتفاظ فيه بحيواناتنا الأليفة، مُلحَق بحديقةٍ ووسائل ترفيه. كثيرًا ما يدور بيننا الحديث عن ذلك، وإن أرجأنا التنفيذ في كلِّ مرَّة، ليس لأنَّه مُقترحٌ باهظ التكلفة فحسب، بل ولأنَّنا في قرارة أنفسنا نعتقد بأنَّنا سوف نبقى مُستقِلَّاتٍ إلى الأبد. إنَّه الفكر السحريّ.

ما لم ننجح في تجنُّب أعراض الشيخوخة، والحفاظ على صحَّتنا حتى نبلغ عمر المئة والعشرين، كما يقترح الأستاذ ديڤيد سنكلير، يجب علينا الاهتمام بتلك المسألة الشائكة، مسألة طول العمر. وإلَّا فالاستمرار في التعامي عنها ضربٌ من الجنون. بوصفنا مجتمعًا، نحن في حاجةٍ إلى العثور على طريقةٍ لتحمُّل مسؤوليَّة الشيوخ ومساعدتهم على مفارقة الحياة ما دامت تلك رغبتهم. يجب أن يكون الموت بمساعدة الآخرين خيارًا مُتاحًا في كلِّ مكان، وألَّا يقتصر على بضعة أمكنةٍ تقدُّميَّةٍ على سطح الأرض. الموت بكرامةٍ حقٌّ بشريّ، ولكنَّ القوانين والمُؤسَّسة الطبِّيَّة كثيرًا ما ترغمنا على الاستمرار في الحياة إلى ما بعد الكرامة.

مثلما جاء في المقولة التي يُفترَض بأنَّ قائلها أبراهام لينكولن، «الحياة لا تُقاس بالأعوام، بل إنَّ الأعوام هي التي تُقاس بالحياة».

اتَّفقتُ وصديقي ـ الذي ما زال مُغريًا في الخامسة والثمانين كما كان شأنه دائمًا ـ على أن ننتحر معًا متى رأينا ذلك مناسبًا، وعلى أن ينطلق بطائرته الخفيفة، التي تبدو وكأنَّها بعوضةٌ من الصفيح، ماضيًا صوب الأفق إلى أن ينتهي الوقود، وعند ذاك نهوي سريعًا حتى نغوص في المحيط الهادي. نهايةٌ نظيفةٌ من شأنها أن توفِّر على الأسرتَيْن عناء ترتيب جنازتَيْن. ولكن من المؤسف أنَّ رخصة قيادة الطائرة الخاصَّة بصديقي قد انتهَت منذ عامَيْن، ولم يُسمَح له بتجديدها، فاضطُرَّ إلى بيع البعوضة. والآن يفكِّر في اقتناء دراجةٍ بخاريَّة.

هذا ما أرغب فيه لنفسي، موتٌ سريع، لأنَّني لستُ أولغا موراي، ولن تكون لي أبدًا قريةٌ حافلةٌ بالمُحبِّين الذين سوف يشملونني بالعناية حتى النهاية.

ولأنَّ الشيء بالشيء يُذكَر، فلا بدَّ من استقبال المهاجرين بأذرعٍ مفتوحة، الآن وقد صار مُعدَّل المواليد ينخفض ومُتوسِّط عمر الفرد يرتفع في الولايات المتَّحدة وأوروبا. لأنَّ المهاجرين من الشباب دومًا، وبعملهم يساعدون على التكفُّل بالمتقاعدين (أمَّا الشيوخ فلا يهاجرون). زِدْ على ذلك أنَّ النساء المهاجرات هنَّ اللاتي يتولَّين رعاية الأطفال والمُسنِّين، بحكم العادة، وهن المُربّيات المفعمات بالصبر والحنان اللاتي يرعينَ أحبّ الناس إلينا.

لا يُعتبَر المُسنُّون أولويَّة، بل مصدر ضيق. فالحكومة لا ترصد لهم الموارد الكافية. والمنظومة الصحِّيَّة تفتقر إلى العدل والكفاءة. وفي غالب الأحوال، يُعَدّ المأوى مكانًا لعزلهم بعيدًا عن الأنظار. يجب على

البلد أن يُوفِّر الرعاية اللَّائقة لأولئك الذين أسهموا في المجتمع طوال أربعين أو خمسين عامًا، الأمر الذي لا يُعمَل به إلَّا في بلدٍ مُتحضِّرٍ على نحوٍ استثنائيّ، واحد من تلك البلدان التي نودّ جميعًا لو عشنا فيها. أمَّا المصير الرهيب الذي ينتظر الغالبية العظمى من المُسنِّين فهو العوز والنبذ والاعتماد على الآخرين في خاتمة المطاف.

قد لا أوفَّق في المُخطَّط الذي وضعته لنفسي، والذي يتمثَّل في الاحتفاظ بنشاطي حتى أفارق الحياة في أثناء العمل، وربَّما حانت اللحظة التي أُضطَرُّ فيها إلى التخلِّي رويدًا رويدًا عمَّا يبدو لي مهمًّا في الوقت الراهن. آمل أن تكون الحسِّيَّة والكتابة آخر ما أُضطَرّ إلى التخلِّي عنه.

لو عشتُ أطول ممَّا ينبغي، لفقدتُ قدرتي على الانتباه. ومتى عجزتُ عن التذكّر والتركيز، فقدتُ القدرة على الكتابة. وعندئذ، سوف يعاني كلّ من حولي، لأن الوضع المثاليّ بالنسبة إليهم أن أكون غائبة، ومنعزلةً قدر الإمكان، في حجرةٍ بعيدة. لو فقدتُ رأسي لما أدركتُ ما يجري. أمَّا فقدان الاستقلال مع الاحتفاظ بالوعي، كما جرى لأمِّي، فلسوف يكون في غاية التعاسة.

ما زلتُ أملك القدرة التامة على الحركة، ولكنَّ قيادة السيَّارة سوف تصبح مهمَّةً عسيرةً ذات يوم. لطالما كانت قيادتي في غاية السوء، والآن صارَت أسوأ وأسوأ. فأنا أصطدم بالأشجار التي تظهر فجأةً حيث لم يكُن لها وجودٌ من قبل. أتجنَّب القيادة ليلًا، إذ تتعذَّر عليَّ قراءة لافتات الشوارع، فينتهي بي الحال تائهةً لا محالة. ولا تقتصر التحدِّيَّات التي تواجهني على قيادة السيَّارة. بل إنَّني أرفض تحديث

الكمبيوتر، أو استبدال الهاتف المحمول، أو السيَّارة العتيقة، أو تعلُّم كيفيَّة استخدام تلك الأجهزة الخمسة، وبذلك أعني أجهزة التحكُّم في التلفزيون عن بعد. أعجز عن فتح القوارير، وصرتُ أجد المقاعد أثقل، والعروات أصغر، والأحذية أضيق.

ويُضاف إلى مواطن القصور آنفة الذكر تضاؤل الرَّغبة الجنسيَّة الذي لا مفرّ منه (على الأقلّ، بالقياس إلى تلك القوى الجارفة التي كانت تزلزلني في الماضي). بالتقدُّم في العمر، تتغيَّر الحسِّيَّة.

صديقتي غريس دامان ـ واحدةٌ من «أخوات الفوضى الأبديَّة» الستّ، عضوات حلقة التدريبات الروحيَّة الحميميَّة ـ تسير بكرسيٍّ مُتحرِّكٍ منذ أعوامٍ طوال، ذلك أنَّها قد تعرَّضَت لصدمةٍ مُروِّعة، واصطدمَت بسيَّارةٍ أخرى رأسًا على جسر غولدن غيت. عندما وقع الحادث الذي فتَّت عددًا من عظامها وتركها شبه مفلوجة، كانت رياضيَّةً جدًّا، تتدرَّب بهدف تسلّق جبل إفرست. ولقد استغرقَت أعوامًا حتى تقبَّلَت حالتها الجسديَّة. وفي ذهنها، ما زالَت تمارس رياضة التزلُّج على الماء في هاواي وتخوض سباقات الماراثون.

ولأنَّها في حاجةٍ إلى المساعدة، تعيش غريس في دارٍ للمُسنِّين، حيث تُعَدّ هي أصغر النزلاء عمرًا. لا تتلقَّى من العون إلَّا قليلًا، فحسبها خمس دقائق في الصباح لترتدي الثياب، وخمس دقائق في الليل لتأوي إلى الفراش، فضلًا عن الاغتسال مرتَيْن في الأسبوع. صارَت تجد في اغتسالها أكبر قدرٍ من اللذَّة الحسِّيَّة. وتقول إنَّ كلَّ قطرةٍ من الماء تنساب على بشرتها نعمة، وإنَّها تتلذَّذ بملمس الصابون ورغوة الشامبو على شعرها. كثيرًا ما أفكِّر في غريس وأنا أغتسل، لئلَّا أعتبر تلك المزية أمرًا مفروغًا منه.

يتدهوَّر جسدي، بينما يتجدَّد شباب روحي. أفترض بأنَّ عيوبي ومزاياي أيضًا باتَت أكثر وضوحًا للعيان. صرتُ أشدّ تبذيرًا وشرودًا ممَّا كنتُ، ولكنِّي بَتُّ أقل غضبًا، لأنَّ طباعي قد لانَت قليلًا. أمَّا شغفي بالقضايا التي احتضنتُها دائمًا، أو بالقلائل الذين أحبّهم، فصار أشدّ ممَّا كان. ما عدتُ أخاف هشاشتي، لأنِّي لا أخلط بينها وبين الضعف. أنا قادرةٌ على العيش فاتحةً ذراعَيّ، وأبوابي، وقلبي. وإليكم سببٌ آخرٌ من الأسباب التي تدفعني إلى الاحتفاء بسنوات عمري، وبكوني امرأة: لستُ مُضطرَّةً إلى إثبات ذكورتي، كما قالت غلوريا ستاينم. وبذلك أقصد أنَّني لستُ في حاجةٍ إلى تعزيز صورة القوَّة التي غرسها جدِّي في نفسي، والتي كثيرًا ما أفدتُ منها في حياتي السابقة، ولكنَّها لم تعُد ضروريَّة. فالآن صرتُ أملك رفاهية طلب المساعدة، والتحلِّي بالعاطفيَّة.

منذ ماتَت ابنتي وأنا على وعيٍ تامٍ بقرب الموت. أمَّا الآن وقد بلغتُ أواخر السبعينيَّات، فلقد أمسى الموت صديقًا. ليس صحيحًا أنَّ الموت هيكلٌ عظميٌّ مُسلَّحٌ بمنجل، تفوح منه رائحة العفن. بل إنَّه امرأةٌ في طور النضج، أنيقة، ودود، مُعطَّرة بأريج الغاردينيا. كانت تحوم في الجوار، ثمَّ نزلَت في البيت المجاور. والآن، ها هي ذي تترقَّب في حديقتي بصبر. أحيانًا، أمرّ من أمامها، فنتبادل التحيَّة، وتُذكِّرني بأنَّه يجب عليَّ اغتنام كلِّ يومٍ وكأنَّه اليوم الأخير.

خلاصة القول إنَّني أمرّ بلحظةٍ رائعةٍ من لحظات قدري المديد. وذلك خبرٌ سارٌ للنساء بوجه العموم: لأنَّ وجودنا يغدو أكثر يسرًا متى تجاوزنا سنّ اليأس وفرغنا من تنشئة الأبناء، ما دمنا قادراتٍ على خفض سقف التوقُّعات إلى الحدّ الأدنى، والتخلِّي عن الأحقاد، والاسترخاء يقينًا منَّا بأنَّ أحدًا لا يلقي أدنى بالٍ إلى ما نحن فاعلات، وإلى مَن نكون،

في ما عدا الأقربين إلينا. كفى تصنُّعًا وافتعالًا وندمًا، حسبنا جلد ذواتنا بسبب الحماقات. على المرأة أن تحبّ نفسها كثيرًا، وتحبّ الآخرين، بغضّ النظر عن مدى حبّهم لنا. إنَّه طور اللطف.

تعزِّز النساء الاستثنائيَّات اللاتي عرفتهنَّ طوال حياتي تلك الرؤية التي تجلَّت لي وأنا في الخامسة عشرة من العمر، إذ رأيتُ عالَمًا تتساوى فيه قِيَم الإناث وقِيَم الذكور، مثلما كنتُ أبشِّر جدِّي، الذي كان ينصت إليَّ وهو يزمّ شفتَيْه ويضمّ قبضتَيْه إلى أن تبيضّ مفاصل أصابعه. «لا أدري في أيِّ عالَمٍ تعيشين يا إيزابيل. تحدِّثينني عن أمورٍ لا تمتّ إلينا بصلة»، هكذا كان يجيب، مثلما قال بعد مضيّ أعوامٍ حين وقع الانقلاب العسكري الذي أنهى الديمقراطيَّة بين عشيَّةٍ وضحاها، فخضع البلد لحكمٍ ديكتاتوريٍّ طويل الأمد.

بحكم عملي صحافيَّة، كنتُ ملمة بما يجري في الظلّ، معسكرات الاعتقال ومراكز التعذيب وآلاف المختفين والقتلى الذين كانَت أجسادهم تُنسَف بالديناميت في الصحراء أو تُلقَى من المروحيَّات في عرض البحر.

لم يرِد جدِّي أن يعرف، بل زعم بأنَّها مُجرَّد شائعات، وبأنَّ شيئًا من ذلك لا يهمُّنا مطلقًا، وأمرني بألَّا أزجّ بنفسي في السياسة، وبأن أبقى في بيتي صامتة، وأفكِّر بزوجي وابنَيّ. «أتذكرين قصَّة الببغاء الذي حاول إيقاف القطار بخفقات جناحَيْه، فسحقه القطار، ولم يبقَ منه أثر، ولا حتى الريشات؟ أذلك ما تريدين؟»، كان يسألني.

ولقد لاحقني ذلك السؤال البلاغيّ طوال عدَّة عقود. ماذا أريد؟ ماذا نريد، نحن النساء؟ اسمحوا لي بأن أذكِّركم بقصة الخليفة العتيقة.

في مدينة بغداد الأسطوريَّة، جِيء بلصٍّ عائدٍ إلى ارتكاب الجريمة حتى يخضع للمحاكمة، ماثلًا بين يدَي الخليفة. كان العقاب المعتاد يقضي بقطع يدَي السارق، ولكنَّ الخليفة أفاق في مزاجٍ صافٍ يومذاك، فعرض على السارق مخرجًا من ذلك الوضع: «قُل لي ماذا تريد النساء، تنَل حرِّيَّتك»، قال له. جعل الرجل يُفكِّر حينًا، وبعد أن تضرَّع إلى اللّٰه ونبيِّه، أدلى بإجابةٍ حاذقة: «يا جلالة الخليفة، تريد النساء أن يُسمَع صوتهنَّ. اسألوهنَّ ماذا يردنَ، ولسوف يجبنَ عن السؤال».

فكَّرتُ أنَّني في حاجةٍ إلى البحث قليلًا حتى أستعدّ لهذه التأمُّلات، ولكن بدلًا من سؤال النساء هنا وهناك، يمكنني أن أوفِّر على نفسي العناء بالرجوع إلى الإنترنت. وهكذا استعرضتُ أحجيَّة الخليفة: ماذا تريد النساء؟ فوجدت أدلَّة مُساعَدة ذاتيَّة بعناوين من قبيل: «اعرفْ ماذا تريد النساء وشاركهنَّ الفراش». كما ظهرَت لي نصائح من رجالٍ إلى رجالٍ آخرين حول كيفيَّة الفوز بالنساء. وإليكم المثال التالي: «المرأة تريد رجلًا شديدًا، اظهرْ أمامها بمظهر العنيف الواثق من نفسه، لا تمنحها أيّ سلطة، أملِ عليها أوامرك وطلباتك، وأعطِ الأولويَّة لاحتياجاتك، ذلك ما يروق لها».

أشكّ في أن تكون تلك حقيقة، على الأقلّ بين معارفي من النساء ـ الكثيرات، لو شرعتُ في عدّ قارئاتي المخلصات ـ فضلًا عن النساء اللاتي اتَّصلتُ بهنَّ عن طريق مُؤسَّستي. أعتقد بأنَّني أملك جوابًا أكثر ملائمةً عن سؤال الخليفة. إليكم ما نريده، نحن النساء، على وجه التَّقريب: نريد الأمان، والتَّقدير، والعيش في سلام، وامتلاك الموارد الخاصَّة بنا، والتواصل في ما بيننا، والحبّ فوق كلِّ شيء. في الصفحات التالية، سأحاول إيضاح المعنى المُراد بذلك.

إنَّ أدقّ مُؤشّرات العنف في أمَّةٍ هو مقدار العنف الذي يُمارَس ضدّ المرأة، ذلك الذي يضفي صبغةً طبيعيَّةً على سواه من أشكال العنف. في المكسيك، حيث يخيِّم عدم الأمان على الشوارع وتفلت العصابات والجماعات الإجراميَّة من العقاب على نحوٍ فاضح، يُقدَّر متوسَّط النساء اللاتي يتعرَّضنَ للقتل يوميًّا بعشر، علمًا أنَّه رقمٌ مُتحفِّظ. والغالبيَّة العظمى من أولئك النساء ضحايا خُطَّابٍ وأزواجٍ ورجالٍ من معارفهنَّ. منذ حقبة التسعينيَّات، قُتِلَت مئات النساء الشابات بعد أن تعرَّضنَ للاغتصاب في مدينتَيْ خواريس وتشيواوا. وفي حالاتٍ كثيرة، خضعنَ للتَّعذيب الوحشيّ، في ظلِّ اللامبالاة التي أبدَتها السلطات. الأمر الذي أثار احتجاجًا حاشدًا للنساء في مارس من عام 2020. يومذاك، أعلنّ الإضراب العام، والامتناع عن العمل، فلم يحضرنَ إلى مقرَّات العمل ولم يؤدّينَ المهمَّات المنزليَّة، وإنَّما خرجن للتظاهر في الشوارع. وسنرى ما إذا ترك ذلك في السلطات أثرًا.

أمَّا جمهوريَّة الكونغو الديمقراطيَّة، فتحمل ذلك اللَّقب المخزي، لقب «عاصمة الاغتصاب العالميَّة»، بما لها من تاريخٍ حافلٍ بالانفلات الأمنيّ والنزاع المُسلَّح. يُعَدّ الاغتصاب ودونه من الاعتداءات المنهجيَّة ضدّ المرأة أدوات قمعٍ تلجأ إليها الجماعات المُسلَّحة، وإن ارتكبها مدنيُّون في واحدةٍ من كلِّ ثلاث حالات. الأمر الذي يحدث في أمكنةٍ أخرى من إفريقيا وأميركا اللَّاتينيَّة والشرق الأوسط وأسيا. فكلَّما تفاقم استقطاب الجنس والذكوريَّة المفرطة، تعرَّضَت النساء لقدر أكبر من العنف، كما يحدث في الجماعات الإرهابيَّة.

نريد الأمان لنا ولأبنائنا. ونحن مُبرمَجات للدفاع عن ذريَّتنا، التي ندافع عنها بالمخالب والإرادة، كما هو الحال وسط الغالبية العظمى من

الحيوانات ـ وإن لم أكُن مُتأكِّدةً من الزواحف مثل الثعابين والتماسيح ـ فالأنثى هي التي ترعى الصغار، إلَّا في حالات استثناءٍ قليلة. وفي بعض الأحيان، تُضطَرّ إلى التضحية بحياتها لحماية الصغار، حتى لا يلتهمهم ذكرٌ جائع.

في وجه التهديد، يتفاعل الذكور إمَّا بالهرب وإمَّا بخوض الصراع: أدرينالين وتستوستيرون. في حين تُشكِّل الإناث حلقةً ويضعن الصغار وسطها: أوكسايتوسين وأستروچين. أمَّا الأوكسايتوسين، فهو الهرمون الذي يدفعنا إلى الاتِّحاد، ذلك الهرمون المفاجئ إلى درجةٍ تدفع بعض الأطبَّاء إلى استخدامه في علاج الأزواج. فيتنشَّقه الزوجان عن طريق بخاخة، على أمل التوصُّل إلى اتِّفاق، بدلًا من الاقتتال. الأمر الذي جرَّبتُه مع ويلي، فلم يؤت ثماره. لعلَّنا لم نتنشَّقه بالقدر الكافي، إذ انفصلنا في خاتمة المطاف، ولكن بقايا ذلك الهرمون المُبارَك سمحَت لنا أن نبقى صديقَيْن مُقرَّبَيْن حتى فارق ويلي الحياة منذ وقتٍ قريب. والدليل على تلك الصداقة أنَّه قد أوصى لي بكلبته الصغيرة پيرلا، تلك الثمرة التعيسة التي نتج عنها تزاوج سلالاتٍ عديدةٍ من الكلاب، بوجهها الخليق بوطواطٍ وجسدها الخليق بفأرٍ سمين، على الرَّغم من شخصيَّتها القويَّة.

يُعَدّ العنف ضدّ المرأة قاسمًا يشترك فيه البشر، قديمًا قدم الحضارة نفسها. ومتى دار الحديث عن حقوق الإنسان، فالمقصود بذلك عمليًّا حقوق الرجال. لو ضُرِب الرجل وحُرِم من حريَّته، لاعتُبِر ذلك تعذيبًا. أما لو عانَت المرأة من الشيء نفسه، لأطلِق عليه عنفٌ منزليّ، الأمر الذي ما زال يُعتبَر شأنًا خاصًّا في معظم أنحاء العالَم.

في بعض البلدان، لا يُبلَغ حتى عن قتل فتاةٍ صغيرةٍ أو امرأةٍ دفاعًا عن الشرف. تُقدِّر منظمة الأمم المُتَّحدة عدد النساء والفتيات الصغيرات اللاتي يُقتَلن كلّ عام، دفاعًا عن شرف الرجل أو الأسرة في الشرق الأوسط وجنوب أسيا، بخمسة آلاف.

طبقًا للإحصاءات، تتعرَّض امرأةٌ واحدةٌ للاغتصاب كلّ ست دقائق في الولايات المُتَّحدة. وإن اقتصرَت تلك الإحصاءات على الحالات التي يُبلَغ عنها، ولذا فالأعداد في الواقع تبلغ خمسة أضعاف ذلك على أقلّ تقدير. كما تتعرَّض امرأةٌ واحدةٌ للضرب كلّ تسعين ثانية. يقع التحرّش والترهيب في البيت والشارع ومكان العمل وشبكات التواصل الاجتماعي، حيث تُحرِّض سريةُ الهوية على أسوأ مظاهر كره المرأة. وذلك في معرض الحديث عن الولايات المتحدة، لكم أن تتخيَّلوا الوضع في بلدانٍ أخرى، حيث حقوق النساء في حالةٍ يُرثَى لها. إن ذلك العنف مُتأصِّلٌ في ثقافة النظام الأبويّ، ولا يُعَدّ حالةً شاذة. لقد حان الوقت لنُسمِّي الأشياء بُمسمَّياتها، ونُندِّد بها.

أن تكوني امرأةً يعني أن تعيشي في خوف. وكل امرأةٍ تحمل الخوف من الذكر مطبوعًا في حمضها النوويّ. وتفكّر مرَّتَيْن قبل أن تفعل شيئًا عاديًّا جدًّا، كالمرور أمام جمعٍ من الرجال العاطلين. في أمكنةٍ يُفترَض بها أن تكون آمنة، كحرم جامعةٍ أو معهدٍ عسكريّ، تُقام برامج لتعليم النساء كيف يتجنَّبن مواقف تنطوي على خطورة، انطلاقًا من القاعدة القائلة بأن المرأة لو تعرَّضَت للهجوم فالذنب يقع على عاتقها هي. لأنها في المكان غير المناسب، وفي الوقت غير المناسب. فلا يُنتظَر من الذكور أن يبدِّلوا سلوكهم، وإنما يُسمَح لهم بالاعتداء

الجنسيّ، بل ويُحتفَى به، على اعتباره حقًّا من حقوق الرجل، وسِمةً من سمات الذكورة. من حسن الحظّ أنَّ ذلك الوضع يتبدَّل سريعًا، على الأقلّ في بلدان العالَم الأوَّل، بفضل مبادرة #MeToo (أنا أيضًا) وغيرها من المبادرات النسويَّة.

ومن أقصى أشكال التعبير عمَّا سبق أولئك النساء اللاتي يعشن مدفونات داخل النقاب، ويُغطِّين من الرأس حتى القدمَيْن تجنُّبًا لإثارة رغبات الرجال الذين يبدو أنَّهم يشعرون بنزواتٍ وحشيَّةٍ لمرأى بضعة سنتيمتراتٍ من بشرة الأنثى، أو جوربٍ أبيض اللون. أي أنَّ المرأة تُعاقَب على مواطن ضعف الرجل وآفاته. ولقد بلغ الخوف من الرجال حدًّا جعل نساءً كثيرات يدافعن عن استخدام النقاب، الذي بفضله يشعرن بالخفاء، وبالتالي يشعرن بقدرٍ أكبر من الأمان.

كان الكاتب إدورادو غاليانو يقول: «في النهاية، يُعَدّ خوف المرأة من عنف الرجل مرآةً ينعكس عليها خوف الرجل من المرأة التي لا تخاف». لقوله وقعٌ حسنٌ، غير أن الفكرة تبدو لي مُلتبِسة. كيف لا نخاف والعالَم يتآمر لبثّ الذعر في نفوسنا؟ قليلاتٌ هن النساء اللاتي لا يخفن، إلَّا متى اجتمعنا، فعند ذاك نشعر بأنَّنا لا نُهزَم.

ما أصل ذلك المزيج المُتفجِّر، ذلك المزيج من الرَّغبة في النساء والكراهية نحوهنَّ؟ لماذا لا يُعتبَر ذلك العدوان والتحرُّش من مشكلات الحقوق المدنيَّة أو حقوق الإنسان؟ فيمَ التكتُّم على ذلك؟ لماذا لا تُعلَن الحرب على العنف ضدّ المرأة، مثلما تُعلَن الحرب على المخدّرات أو الإرهاب أو الجريمة؟ الإجابة واضحة: لأنَّ العنف والخوف من أدوات السيطرة.

بين عامَي 2005 و2009، في المستعمرة الميناوناتيَّة النائية شديدة المحافظة، التي تُدعَى مانيتوبا، الواقعة في بوليفيا، تعرَّضَت للاغتصاب المنتظم مجموعةٌ قوامها مئة وخمسون امرأةً وطفلة، من بينهن طفلة في عمر الثالثة، وذلك بعد تخديرهنَّ باستخدام بخاخةٍ مُخصَّصةٍ لتخدير الثيران قبل عمليَّة الإخصاء. كن يفقن مُضرَّجاتٍ بالدِّماء، مصاباتٍ بالرضوض، فيُفسَّر لهنَّ الأمر بأنَّ الشيطان قد عاقبهنَّ، وأنَّ الأرواح الشرِّيرة قد سكنَت أجسادهنَّ. كانت النساء من الأميَّات، يتحدَّثنَ ألمانيَّةً عتيقةً تمنعهنَّ من الاتِّصال بالعالَم الخارجيّ، يجهلنَ مكانهنَّ، يعجزنَ عن قراءة الخارطة للهرب، ولم يكُن لهنَّ من يلجأنَ إليه. ولا تُعَدّ تلك حالة فريدة، فالشيء نفسه قد جرى وما زال يجري في مجتمعاتٍ أخرى، مجتمعاتٍ أصوليَّة، منعزلة، دينيَّة، أو ذات طابعٍ آخر، من قبيل بوكو حرام، ذلك التنظيم الإرهابيّ النيجيريّ، حيث تُعامَل النساء كالحيوانات. في بعض الأحيان، لا يحدث ذلك لدوافع أيديولوجيَّة، وإنَّما يقع بسبب العزلة والجهل، كما حدث في تيسفيورد، شمالي النرويج، في الدائرة القطبيَّة الشماليَّة.

يخشى الرجال سلطةَ الأنثى، ولذا فرضَت القوانين والأديان والعادات كلّ صنوف التضييق على التطوُّر الفكريّ والفنّيّ والاقتصاديّ للنساء، طوال قرونٍ من الزمان. في الماضي، اتُّهِمَت عشرات الآلاف من النساء بالسِّحْر، فحُكِم عليهنَّ بالتعذيب والحرق وهنَّ على قيد الحياة، جزاءً لهنَّ على الإفراط في المعرفة وامتلاك سلطة العلم. ما كان يحقّ للنساء دخول المكتبات أو الجامعات. بل إنَّ المرأة المثاليَّة كانت ـ وما زالت في بعض الأنحاء ـ هي المرأة الأمِّيَّة، كي تظلّ خاضعة، عاجزةً عن التمرُّد والتشكيك. مثلها كمثل العبيد، إذ كان العبد الذي يتعلَّم القراءة

يُعاقَب بالجلد، وبالموت أحيانًا. في الوقت الراهن، يحقّ للنساء التعلّم بقدر ما يحقّ للرجال. وعلى الرَّغم من ذلك، فإذا نجحَت المرأة نجاحًا مشهودًا، أو طمحَت إلى القيادة، قُوبِلَت بالعدوان، كما حدث لهيلاري كلينتون في الانتخابات الرئاسيَّة التي عُقِدَت عام 2016 في الولايات المتحدة.

بين القتلة مُرتكِبي المجازر في الولايات المتَّحدة قاسمٌ مُشترَك، يتمثَّل في كره النساء، الشيء الذي تؤكِّده ملفَّاتهم الحافلة بالعنف المنزليّ وتهديد النساء والاعتداء عليهنَّ (أضف إلى ذلك أنَّ جميعهم بلا استثناء من الرجال أصحاب البشرة البيضاء). والكثير من أولئك السيكوباتيِّين قد تأثَّروا بالعلاقة الصادمة بأمَّهاتهم، ولا يحتملون أن يُقابَلوا بالرفض أو اللامبالاة أو الاستهزاء على أيدي النساء، أي أنَّهم لا يحتملون سلطة النساء. «يخشى الرجال أن تهزأ بهم النساء. وتخشى النساء أن يقتلهنَّ الرجال»، كما قالت الكاتبة مارغريت آتوود.

ولقد اختبرَت حركة تحرير المرأة مشاعر الاعتداد بالذات لدى جيلَيْن من الرجال، إذ تحدَّتهم النساء وتفوَّقنَ عليهم في كثيرٍ من الأحيان، في تلك المجالات التي كانت حكرًا على الرجال. على سبيل المثال، لم يكُن من قبيل المصادفة أن يرتفع مُعدَّل الاغتصاب في القوات المُسلَّحة، حيث لم تكُن النساء في الماضي يشغلن إلَّا مناصب إداريَّة، بعيدة عن الإثارة. فكثيرًا ما يأتي ردّ الفعل الذكوريّ عنيفًا أمام سلطة الأنثى.

وبطبيعة الحال، لا أزعم بأنَّ جميع الرجال مُستغِلّون ومُغتصِبون مُحتمَلون، ولكن النِّسبة كبيرةٌ إلى الحدّ الذي يستوجب وضع

العنف ضدّ المرأة في منزلته الحقيقيَّة واعتباره: كبرى الأزمات التي تواجه البشريَّة. لا يُعَدّ مُرتكِبو الاعتداء حالاتٍ استثنائيَّة، فهم ليسوا سيكوباتيِّين، بل إنَّهم آباء، وأشقاء، وخُطَّاب، وأزواج، ورجالٌ عاديُّون.

كفانا تلطيفًا من وقع الكلمات. كفانا حلولًا جزئيَّة. الأمر يستلزم تغييراتٍ عميقةٍ في المجتمع، ودورنا، نحن النساء، يقتضي فرضها. تذكَّرْن أنَّ أحدًا لا يهدينا شيئًا، وينبغي لنا الحصول عليه بأنفسنا. من واجبنا خلق الوعي على مستوى عالَميّ، وتنظيم أنفسنا. الأمر الذي صار ممكنًا أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، إذ بتنا نملك المعلومات والقدرة على التواصل والاحتشاد.

يكمن تفسير إساءة المعاملة التي تلقاها المرأة في الانتقاص من قيمتها. أمَّا النسويَّة، فتُعَدّ تصوّرًا راديكاليًّا يقول بأنَّ النساء أشخاص، كما قالت ڤيرچينيا وولف. على مدى قرون، كان امتلاك المرأة روحًا مسألةً تخضع للمناقشة. وفي أمكنةٍ كثيرة، ما زالت المرأة تُباع وتُشتَرى وتُقايَض كالسلع، ويعتبرها أكثر الرجال أدنى منزلةً، مع أنَّهم لا يعترفون بذلك أبدًا، ولهذا السَّبب يصدمهم ويُشعِرهم بالمهانة أن تعرف المرأة بقدر ما يعرفون، أو تحقِّق من الإنجازات بقدر ما يحقِّقون.

سبق وحكيتُ هذه القصَّة في إحدى المُذكِّرات، ولكنّي سأوجزها في هذا الموضع، لأنَّها قصَّةٌ كاشفة: منذ سنواتٍ طوال، في عام 1995، سافرتُ إلى الهند برفقة صديقتي تابرا وويلي، الذي كان زوجي آنذاك، إذ رتَّب كلاهما تلك الرحلة لإخراجي من محيطي الخاصّ ومساعدتي على تجاوز الشلل الذي أصابني إثر وفاة ابنتي. كنت قد كتبتُ مُذكِّرات ـ بعنوان

باولا ـ سمحَت لي بفهم الواقعة وتقبّلها، ولكن بعد أن نُشِرَت المُذكِّرات وجدتُ نفسي غارقةً في خواءٍ رهيب. وخلَت حياتي من المغزى.

أحتفظ من الهند بما رأيتُ فيها من تفاوتات، كما أحتفظ بجمالها المدهش، وبذكرى الواقعة التي كان لها بالغ الأثر على البقيَّة الباقية من وجودي.

كُنَّا قد استأجرنا سيارة يقودها سائق، ومضينا بها عَبْر دربٍ ريفيٍّ في راخاستان، فارتفعَت درجة حرارة المُحرِّك واضطُرِرنا إلى التوقُّف. وبينما رحنا نترقَّب حتى يبرد المُحرِّك، مضيتُ أنا وتابرا إلى جمع من ست أو سبع نساءٍ يتحلَّق حولهنَّ الأطفال، تحت ظلال الشجرة الوحيدة في تلك المنطقة الصحراويَّة. ماذا كُنَّ يفعلن هناك؟ ومن أين أتين؟ لم نمرّ بقريةٍ أو بئرٍ تفسِّر حضورهنَّ في ذلك المكان. اقتربَت النساء الشابات، بمظهرهنَّ الذي ينمّ عن فقرٍ شديد، مدفوعاتٍ بذلك الفضول البريء الذي ما زال موجودًا في بعض الأمكنة، مُنجذِباتٍ إلى شَعْر تابرا الذي كان بلون الشمندر، فأهديناهنَّ الأساور الفضِّيَّة التي اشتريناها في إحدى الأسواق، وأخذنا نلهو مع الأطفال حينًا، حتى استدعانا السائق مُطلِقًا آلة التنبيه.

وعند الوداع، اقتربَت إحدى النساء منِّي وسلَّمَتني صرَّةً صغيرةً من الأسمال، تكاد لا تزن شيئًا. خِلتُها تريد أن تهديني شيئًا مقابل الأساور، ولكنِّي أزحتُ الأسمال كي أرى محتويات الصرَّة، فأدركتُ أنَّ بها رضيعًا حديث الولادة. باركتُه وحاولتُ أن أردّه إلى أمّه، غير أنَّها تراجعَت وأبَت أن تتلقَّاه. وإذا بمفاجأةٍ شديدةٍ تستحوذ عليَّ، إلى الحدّ الذي شلَّ حركتي، ولكنَّ السائق، ذلك الرجل الملتحي، فارع القوام، صاحب العمامة، أقبل راكضًا، وانتزع الرضيع من بين يدَيّ ثمَّ ناوله إلى امرأةٍ أخرى بحدَّة. بعد

ذلك، أخذ بذراعي ومضى بي إلى السيَّارة وهو يكاد يسحبني سحبًا، ثمَّ انطلقنا على عجل. وبعد مضي عدَّة دقائق، صدر منِّي ردّ فعل. «ماذا جرى؟ لماذا كانت تلك المرأة تريد أن تعطيني رضيعها؟»، سألتُ في حيرة. «إنَّها بنت. ولا أحد يريد بنتًا!»، أجابني السائق.

لم أتمكَّن من إنقاذ تلك البنت، التي تظهر لي في الأحلام منذ سنوات. أحلم بأنَّها عاشَت حياةً بائسة، أحلم بأنَّها ماتَت في سنٍّ مُبكِّرةٍ للغاية، أحلم بأنَّها ابنتي أو حفيدتي. وبالتَّفكير فيها، اتَّخذتُ قراري بإنشاء مُؤسَّسةٍ تهدف إلى مساعدة النساء والبنات من أمثالها، بناتٍ لا يريدهنَّ أحد، يُبَعنَ عن طريق تزويجهنَّ قبل الأوان، ويُرغَمن على العمل والاشتغال بالدعارة، بناتٍ يتعرَّضن للضرب والاغتصاب، ويلدن وهنَّ في عمر الحلم، بناتٍ يصبحن أمهاتٍ لبناتٍ مثلهنَّ، في حلقةٍ أبديَّةٍ من الذلّ والألم، بناتٍ يمتنَ في عمر الشباب، وأخرياتٍ لا يملكن حتى الحقّ في الميلاد.

الآن وقد بات من الممكن معرفة جنس الجنين، تُجهَض ملايين البنات. في الصين، أدَّت سياسة الابن الواحد، التي عُمِل بها حتى عام 2016، إلى انخفاض أعداد العرائس، فصار كثيرٌ من الرجال يستجلبوهنَّ من بلدانٍ أخرى، رغمًا عنهنَّ في بعض الأحيان. تُقدَّر أعداد ضحايا الإتجار بالبشر في أقلّ من خمسة أعوامٍ بواحدٍ وعشرين ألف فتاة، جِيء بهنَّ من ميانمار (بيرمانيا سابقًا) إلى مقاطعة خنان، التي تشهد أكبر نسبة تفاوتٍ بين تعداد الذكور والإناث: فمقابل كلّ مئة بنتٍ يُولَد مئةٌ وأربعون ولد. تتعرَّض أولئك الشابَّات للتخدير والضرب والاغتصاب، ويصبحن زوجات أسيراتٍ وأمهاتٍ رغمًا عن إرادتهنَّ. قد يستنتج المرء أنَّ قيمة الإناث باتَت تضاهي قيمة الذكور في الوقت الحالي، بالنظر إلى

ارتفاع الطلب عليهنَّ، ولكن ليس بعد. في كثيرٍ من الأمكنة، يُعَدّ إنجاب الإناث وصمة عار، في حين يُعتبَر إنجاب الذكور نعمة. بل إنَّ القابلات يتلقَّين أجرًا أقل ما دام المولود بنتًا.

طبقًا لمُنظَّمة الصحة العالميَّة، تُقدَّر أعداد ضحايا تشويه الأعضاء التناسليَّة بمئتي مليون امرأة، فضلًا عن ثلاثة ملايين بنتٍ مُعرَّضاتٍ لذلك الخطر في هذه اللحظة، في مناطق بإفريقيا وأسيا، وفي أوساط المهاجرين إلى أوروبا والولايات المتَّحدة. لو أنَّ لكم قلبًا قويًّا، فابحثوا عَبْر الإنترنت عن تلك الممارسة حيث يُستأصَل بظر البنت وأشفار الفرج بأمواس الحلاقة، أو بالسكِّين، أو بقطع الزجاج، بلا مُخدِّرٍ ولا حتى الحدّ الأدنى من إجراءات النظافة. ترتكب عمليَّةَ التشويه نساءٌ يكرِّرن عادةً ترمي إلى حرمان المرأة من المتعة الجنسيَّة وبلوغ النشوة، من دون التشكيك فيها. بينما لا تتدخَّل الحكومات، مُتذرِّعةً بأنَّها عادةٌ دينيَّةٌ أو ثقافيَّة. أمَّا الفتاة التي لم تُشوَّه أعضاؤها التناسليَّة، فتغدو أبخس قيمةً في سوق الزواج.

الإساءة إلى النساء والبنات، واستغلالهنَّ، وتعذيبهنَّ، وارتكاب الجرائم في حقّهنَّ، أمورٌ تجري على نطاقٍ واسعٍ في العالَم بأسره، وغالبًا ما يفلت مُرتكِبوها بفعلتهم. وتبلغ الأرقام من الضخامة حدًّا يُذهِلنا ويعمينا عن هول ما يجري. نحن لا نملك التضامن وطفلة أو امرأة مرَّت بواحدةٍ من تلك التجارب المُروِّعة ما لم نتعرَّف بها، ونعرف اسمها، ونرَ وجهها، ونسمع قصتها.

نفترض بأنَّه ما من شيءٍ مُروِّعٍ إلى هذا الحدّ قد يقع لبناتنا. وعلى الرَّغم من ذلك، فمتى خرجن إلى العالَم واعتمدن على أنفسهنَّ سوف

يتعرَّضن بدورهنَّ إلى التقليل من الشأن والتحرُّش في حالاتٍ لا عدّ لها. بوجه العموم، البنات أوفر حظًّا من المهارة والاجتهاد في المدرسة والتعليم العالي، إذا ما قُورِن بالأولاد، ولكنَّ الفرص المتاحة لهنَّ أقلّ عددًا. في سوق العمل، يجني الرجال رواتب أكبر، ويشغلون مناصب أرقى، بينما نُضطَرّ، نحن النساء، إلى بذل جهودٍ مضاعفةٍ في مجالَي الفنّ والعلم، في سبيل الحصول على نصف التقدير... ولمَ الاسترسال!

في عقودٍ ماضية، مُنِعَت النساء من تنمية الموهبة والإبداع، إذ اعتُبِر ذلك شيئًا يناقض الطبيعة، وزُعِم بأنَّ دور المرأة يقتصر بيولوچيًّا على الأمومة. أمَّا لو حقَّقَت إحدى النساء نجاحًا ما، فيجب عليها الاحتماء خلف الزوج أو الأب الذي ينال التَّقدير، كما حدث لمُلحِّنات ورسَّامات وكاتبات وعالمات. تبدَّل الحال، وإن ليس في كلِّ مكان، وليس بالقدر الذي نريده.

في وادي السيليكون، فردوس التكنولوچيا الذي غيَّر جوهر التواصل والعلاقات الإنسانيَّة إلى الأبد، هناك حيث مُتوسِّط عمر الفرد دون الثلاثين، أي أنَّنا في معرض الحديث عن جيل الشباب الذي يُفترَض به أن يكون هو الأكثر تقدُّميةً وتبصُّرًا في العالَم، تعاني النساء من التمييز بالممارسة الذكوريَّة نفسها التي لم تكُن مقبولةً منذ نصف قرنٍ مضى. في ذلك المحيط، كغيره الكثير، تنخفض نسبة المُوظَّفات اللاتي يعانين من المماطلة في تولِّي المناصب والترقية، ويُنتقَص من قدرهنَّ، ويتعرَّضن للمقاطعة والتجاهل حين يدلين برأيهنَّ، ويعانين التحرُّش في كثيرٍ من الأحيان.

كانت أمِّي تُحسِن الرسم بالزيت، وتتمتَّع بحسٍّ رائعٍ باللون، ولكنَّها لم تأخذ نفسها على محمل الجدّ، لأنَّ أحدًا لم يأخذها على محمل

الجدّ. تربَّت على الفكرة القائلة بأنَّها محدودة الإمكانيَّات، لأنَّها امرأة. أمَّا الفنَّانون والمبدعون الحقيقيُّون، فهم الرجال. أتفهَّم ذلك، فحتَّى أنا أرتاب في قدرتي وموهبتي، برغم نسويتي. بدأتُ في كتابة الخيال قرب الأربعين، وشعورٌ يساورني بأنَّني أقتحم منطقةً مُحرَّمة. كان الكُتَّاب المشاهير من الرجال، ولا سيَّما كُتَّاب «البوم» الأميركيّ اللَّاتينيّ. في حين كانت پانتيشتا تخشي «ترك العنان ليدها»، كما أوضحَت لي ذات مرة، وآثرَت النقل، لأنَّه لا ينطوي على مخاطر، وهكذا لن يسخر منها أحدٌ أو يتَّهمها بالغطرسة. كانت تنقل على أكمل وجه. كان في يدها الانصراف إلى الرسم بقدرٍ أكبر من المثابرة، والدراسة، ولكن أحدًا لم يشجِّعها. بل اعتُبِرَت «لوحاتها الصغيرة» نزوةً أخرى من نزواتها.

لطالما احتفيتُ كثيرًا بلوحات أمِّي، وكنتُ أُحضِرها إلى كاليفورنيا بالعشرات، واليوم صارت تكسو جدران مكتبي وبيتي، وحتى المرأب. كانت پانتشيتا ترسم من أجلي أنا. أعرف أنَّها قد ندمَت لأنَّها لم تجرؤ على إعطاء الأولويَّة للرسم، كما تمكَّنتُ أنا من إعطاء الأولويَّة للكتابة أخيرًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

دعونا نتكلَّم عن السلام. تُعَدّ الحرب أقصى مظاهر الذكورية. بل إن أكثر الضحايا في أيِّ حربٍ من النساء والأطفال، وليسوا من المحاربين. ويُعتبَر العنف هو المُسبِّب الرئيسيّ لموت النساء بين الرابعة عشرة والرابعة والأربعين، مُتفوِّقًا بذلك على السرطان والمالاريا وحوادث المرور مجتمعةً. وتُشكِّل النساء والبنات 70% من مجموع ضحايا الإتجار بالبشر. يمكن القول بأنَّ هناك حربًا غير مُعلَنة على النساء. فلا عجب أن تهفو نفوسنا إلى السلام قبل كلِّ شيء، لنا ولأبنائنا.

كنتُ برفقة أمّي حين شاهدتُ لأوّل مرّة «مناجاة المهبل»، للكاتبة إيف إنسلِر، العمل الذي بات يمثّل جزءًا من الثقافة العالميّة الآن. فتأثّرَت كلتانا حتى النخاع. وفي طريقنا للخروج من المسرح، قالَت پانتشيتا إنّها لم تفكّر في مهبلها قطّ، دع عنك أن تنظر إليه في المرآة.

كتبَت إيف إنسلِر المناجاة عام 1996، عندما كان «المهبل» لفظًا نابيًا لا تجرؤ النساء على ذكره إلّا أمام طبيب النساء. تُرجِم العمل إلى لغاتٍ كثيرة، وقُدّم على خشبة مسرح أوف ـ برودواي، وفي المدارس والشوارع والساحات، كما عُرِض سرًّا في أقبية البلدان حيث تُحرَم النساء من الحقوق الأساسيّة. جَمَع العملُ المذكور ملايين الدولارات التي استُخدِمَت لحماية النساء وتعليمهنّ وتنمية ملكة القيادة لديْهنّ.

أمّا إيف، التي تعرّضَت للاعتداء الجنسيّ على يد والدها نفسه، فأسّسَت V-Day، المبادرة التي ترمي إلى وضع حدٍّ للعنف ضدّ النساء والبنات على صعيدٍ دوليّ. في الكونغو، أنشأت مبادرةُ V-Day مدينةَ البهجة، ملاذ ضحايا الحرب من النساء والبنات اللاتي تعرّضن للاختطاف والاغتصاب والإساءة والاستغلال والتعذيب وتشويه الأعضاء التناسليّة والجنس مع ذوي القربى، أولئك اللاتي يحيق بهنّ خطر القتل بدافع الغيرة أو الثأر، للتخلّص منهنّ، أو لأنّ تلك هي الأضرار الجانبيّة الناشئة عن النزاعات المسلّحة، ببساطة. وهناك تبدأ النساء في التعافي، ويعاودن الكلام، والغناء، والرقص، وسرد حكاياتهنّ، والوثوق بأنفسهنّ وبغيرهنّ من النساء، وتُبعَث أرواحهنّ من جديد.

ثمّ يعدن إلى العالَم جميعًا وقد صرن نساءً أخريّات.

على مدى عقود، شهدَت إيف من الفظائع ما لا يمكن تخيُّله، غير أنّها لا تنثني: فهي موقنة بقدرتنا على وضع حدٍّ لذلك العنف خلال جيلٍ واحد.

لقد تحوَّل الاغتصاب إلى سلاحٍ من أسلحة الحرب. وصارت النساء أولى ضحايا جيوش الغزو والاحتلال، والجماعات شبه العسكريَّة، وجماعات حروب العصابات، والحركات المقاتلة بصنوفها كافة، حتى الدينيَّة منها، والجماعات الإرهابيَّة والعصابات، بالطبع، كعصابات مارا المُروِّعة في أميركا الوسطى. في الأعوام الأخيرة، تعرَّض أكثر من نصف مليون امرأةٍ للاغتصاب في الكونغو وحدها، بدءًا برضيعاتٍ يبلغن من العمر شهورًا قليلة، وصولًا إلى جدَّاتٍ في الثمانينيَّات، لحقت بهنَّ الإصابات وشُوِّهَت أجسادهنَّ، وأصبن بنواسير لا تُشفَى بالجراحة في أحيانٍ كثيرة، من شدَّة الجروح.

الاغتصاب يُدمِّر أجساد أولئك النساء والبنات، يُدمِّر حياتهنَّ، ونسيج المجتمع نفسه. ولقد بلغ الأذى من العمق حدًّا جعل الرجال يتعرَّضون للاغتصاب أيضًا. وبتلك الطريقة، تُحطِّم الميليشيات والجيوش إرادة المدنيِّين وأرواحهم. يعاني الضحايا صدماتٍ جسديَّة ونفسيَّة رهيبة، وتعلّق بهم الوصمة إلى الأبد. في بعض الأحيان، تُطرَد الضحيَّة من محيط الأسرة والقرية، أو تُعدَم رميًا بالحجارة. وتلك حالةٌ أخرى يُلقَى فيها باللَّائمة على الضحيَّة.

كاثيتا رامداس، المديرة الحالية لبرنامج حقوق المرأة لدى مُؤسَّسة المجتمع المنفتح، والرئيسة السابقة للصندوق العالميّ للمرأة، كبرى المنظَّمات غير الهادفة إلى الربح المُكرَّسة لدعم حقوق المرأة، تقترح نزع السلاح من العالَم، ذلك الهدف الذي لن يتحقَّق إلَّا على أيدي النساء، لأنَّ المرأة لا تغريها جاذبية الأسلحة الذكوريَّة، بل إنَّها تعاني الأثر المباشر المُترتِّب على تلك الثقافة التي تُمجِّد العنف.

لا أشدّ ترويعًا من العنف متى اقترن بالإفلات من العقاب، كما هو الحال دائمًا في زمن الحرب. يُعتبَر إنهاء الحروب واحدًا من أحلامنا الأكثر طموحًا، ولكنَّ المصالح المُختلَقة حول صناعة الحرب مفرطة الضخامة. ونحن في حاجةٍ إلى عددٍ كبيرٍ من الأشخاص المُتأهِّبين لتحويل ذلك الحلم إلى حقيقةٍ كي ترجَّح كفة السلام.

تخيَّلوا عالَمًا خاليًا من الجيوش، عالَمًا تُستخدَم فيه الموارد الحربيَّة من أجل المصلحة العامة، حيث تُحَلّ النزاعات حول طاولة المفاوضات، حيث يُكلَّف الجنود بمهمَّة حفظ النظام ونشر السلام. متى تحقَّق ذلك، نكون قد تخطَّينا مرحلة الإنسان العاقل، وقفزنا قفزةً تطوُّريَّةً نحو الإنسان الراقي السعيد.

لا نسويَّة بغير استقلالٍ اقتصاديّ. ولقد رأيتُ ذلك بوضوحٍ في طفولتي، من خلال وضع أمِّي. نحتاج، نحن النساء، أن يكون لنا دخلٌ خاصّ، نتحكَّم فيه بأنفسنا، الأمر الذي يتطلَّب التَّعليم، والتمكين، والبيئة المناسبة في محيط العمل والأسرة، وتلك مواصفات لا تتوافر دومًا.

حكى لي دليلٌ من شعب السامبورو في كينيا أنَّ والده كان يبحث له عن زوجة، شريطة أن تكون أمًّا جيِّدة، ترعى الغنم، وتؤدِّي الأشغال المنزليَّة الواجبة عليها. وفي المستقبل، يُرجَّح أن تطلب منه بنفسها أن يبحث عن زوجات أخريات ليساعدنها في العمل. كما أوضح أنَّها لو وجدَت خيارات أخرى، لاختلَّ توازن الأسرة والمجتمع. أتفهَّم الأسباب التي تدفع ذلك الدليل إلى الحفاظ على التقاليد، فهي تلائمه كثيرًا، ولكنّي كنتُ أودُّ التحدُّث إلى تلك العروس المُفترَضة، وإلى الزوجات

في قريته، ممَّن يُحتمَل أنَّهنَّ لا يشعرن بالرضى عن مصيرهنَّ، ولو حصلن على التعليم الذي حُرِمن منه، فلربَّما طمحن إلى حياةٍ غير الحياة.

عام 2015، كانت النساء يشكِّلن ثلثَيْ إجمالي الأميِّين البالغين في العالَم، طبقًا للتقديرات. أكثر الأطفال غير الملتحقين بالمدارس من الإناث. تتلقَّى النساء أجرًا أقلّ عن العمل نفسه. أمَّا الوظائف التي تشغلها النساء بحكم التقاليد، كوظائف المُعلِّمات والمُربِّيات وما إلى ذلك، فأجورها بخسة. بينما لا تُوفَّى الأشغال المنزليَّة قدرها ولا يُدفَع عنها أجر. الأمر الذي صار أدعى للضيق في الوقت الحالي، إذ باتت النساء يعملن خارج البيت ـ لأنَّ أجر الرجل قلَّما يكفي لإعالة الأسرة ـ ثمَّ يَعدن متعباتٍ لتولِّي أمر الأبناء والطعام والأشغال المنزليَّة. يجب علينا تغيير العادات والقوانين.

نعيش في عالَمٍ يعاني من اختلالٍ شديد في التوازن. في بعض الأمكنة، تتمتَّع المرأة بحرِّيَّة تقرير المصير، نظريًّا على الأقل، وفي أمكنةٍ أخرى تخضع المرأة للرجل، لطلباته ورغباته ونزواته. في بعض المناطق، لا يمكن للمرأة الخروج من بيتها إلَّا برفقة محرم، كما تُحرَم من الصوت، ومن القدرة على البتِّ في مصيرها أو مصير أبنائها، ومن التَّعليم، ومن الرعاية الصحِّيَّة الملائمة، ومن الدخل. لا تشارك المرأة بأيِّ شكلٍ من الأشكال في الحياة العامة، بل إنَّها لا تقرِّر حتى موعد الزواج، ولا الزوج الذي ترتبط به.

في أواسط عام 2019، طالعنا في الصحف خبرًا سارًّا يفيد بأنَّ المرأة في السعودية ـ حيث تملك من الحقوق أقلّ ممَّا يملكه فتًى في العاشرة من العمر ـ صارت قادرةً على قيادة السيَّارة والسفر من دون محرم، أخيرًا. الأمر الذي تحقَّق بعد أن هربَت عدَّة نساءٍ من العائلة

المالكة خلسةً وتقدَّمن بطلب اللجوء في بلدانٍ أجنبيَّة، عجزًا منهنَّ عن احتمال القمع في بلدهنَّ. ولكن، الآن وقد صارَت القيادة والسفر حقًّا مشروعًا، يجب على النساء مواجهة غضب رجال الأسرة من أولئك الذين يرفضون التغيير، بينما القرن الحادي والعشرين في أوجه!

لو قلتُ إنِّي كنتُ نسويَّةً في الخامسة من العمر (ولي جزيل الشرف)، فأنا لا أقولها لأنَّني أذكر ذلك ـ إذ تمَّ لي الأمر على مستوى عاطفيّ، قبل أن أدرك ما أنا فاعلة ـ بل أقولها لأنَّ ذلك ما أخبرَتني به أمِّي. آنذاك، كانت پانتشيتا تعيش خائفةً على الابنة الغريبة التي شاء لها الحظّ أن تنجبها. وأنا صغيرةٌ في بيت جدِّي، كان رجال الأسرة يملكون المال والسيَّارات والحرِّيَّة اللَّازمة للذهاب والمجيء وقتما يحلو لهم، ويتمتَّعون بالسلطة اللَّازمة لاتِّخاذ جميع القرارات، حتى أدناها أهمِّيَّة، مثل قائمة طعام العشاء. في حين لم تكُن أمِّي تملك من ذلك شيئًا، بل إنَّها عاشت على إحسان والدها وشقيقها الأكبر، ولم تملك من الحرِّيَّة إلَّا قليلًا، إذ كان الواجب يملي عليها أن تحافظ على سمعتها. كم كنتُ أدرك من ذلك الوضع؟ ما يكفي لأشقى به.

في طفولتي، كان الاعتماد على الآخرين يروِّعني بالقدر الذي ما زال يروِّعني به، ولذا عزمتُ على العمل حتى أعتمد على نفسي فور إنهاء مرحلة التعليم الثانويّ، وأنفق على أمِّي أيضًا، ما وسعني ذلك. كان جدِّي يقول: «من دفع، أملى أوامره». وتلك أول مُسلَّمةٍ أدمجتُها في نسويتي الناشئة.

سوف أتطرَّق إلى مُؤسَّستي في إيجاز، فلقد حان وقت الحديث عنها بعد كلِّ ما سبق. (يمكنكم رؤية العمل الذي ننجزه على الرابط التالي:

(www.isabelallende.org). في عام 1994، نُشِرَت المُذكِّرات التي كتبتُها بعنوان باولا. فجاء ردُّ القرَّاء استثنائيًّا، وانهالَت على بريدي عشرات الرسائل يوميًّا، بلغاتٍ شتَّى، أرسلها أولئك الذين لمسَتهم قصَّة ابنتي. وجدوا أنفسهم في حزني، لأنَّ الجميع يُمنَى بالخسائر والآلام. تراكم تلٌّ من الرسائل في الجوارير. ولقد بلغ جمال بعض الرسائل حدًّا جعل عددًا من الناشرين الأوروبيِّين يُصدِرون مختاراتٍ منها بعد صدور الكتاب بعامَيْن.

أمَّا عائدات الكتاب، التي هي ملك ابنتي، وليسَت ملكي أنا، فقد أودعتُها في حسابٍ منفصل، بينما رحتُ أفكِّر ماذا كانت باولا ستفعل بها. وبعد تلك الرحلة التي لا تُنسَى إلى الهند، اتَّخذتُ قراري. عند ذاك، وُلِدَت مُؤسَّستي، التي أخذَت على عاتقها مهمَّة الاستثمار في قدرة النساء والبنات المُعرَّضات لخطرٍ شديد، لأنَّ تلك هي المهمَّة التي أخذَتها باولا على عاتقها طوال حياتها قصيرة الأمد. وكان قرارًا مُوفَّقًا. بفضل تلك المُؤسَّسة، التي تقوم على جزءٍ مُعتبَرٍ من ريع مُؤلَّفاتي، ما زالت ابنتي تقدِّم المساعدة في هذا العالَم. ولكم أن تتخيَّلوا ما الذي يعنيه لي ذلك.

لستُ في حاجةٍ إلى اختراع بطلات كتبي، النساء القويات صاحبات العزيمة، لأنِّي مُحاطةٌ بهنَّ. بعضهنَّ أفلت من الموت، وتعرَّض لصدماتٍ شديدة، وفقد كلّ شيء، حتى الأبناء. وعلى الرَّغم من ذلك، يمضين قدمًا. لا ينجون بحياتهنَّ فحسب، بل يكبرن ويصبحن قائدات مجتمعاتهنَّ في بعض الأحيان. يفتخرن بندوب الجسد، وجراح الروح، لأنَّها تشهد بقدرتهنَّ على التأقلم. تأبى أولئك النساء أن يُعامَلن بوصفهنَّ ضحايا، إذ يتمتَّعنَ بالكرامة والشجاعة، فينهضن، ويمضين قدمًا، من دون أن يفقدن القدرة على العيش بحبٍّ ورحمةٍ وبهجة. يتعافين ويزدهرن، بقليلٍ من التعاطف والتضامن.

في بعض الأحيان، أصاب بخمود الهمَّة. وأسائل نفسي عمَّا إذا كان إسهام المُؤسَّسة لا يعدو أن يكون قطرة ماءٍ في بحرٍ من العوز. ما أكثر اللَّازم عمله، وما أقلّ الموارد! غير أنَّه تساؤل مؤذٍ، لأنَّه يدعو المرء إلى غسل يدَيْه من شقاء الآخرين. في هذه اللحظات، تقول لي لوري، زوجة ابني ومديرة المُؤسَّسة، إنَّ الأثر المُترتِّب على جهودنا لا يُقاس على نطاقٍ عالميّ، وإنَّما يجب قياسه حالةً بحالة. ونحن لا نملك هزّ أكتافنا أمام المشكلات التي تبدو عصِّيَّةً على الحلّ، بل يجدر بنا التحرُّك. تُذكِّرني لوري بأولئك المتفانين الشجعان الذين يعملون في ظلّ أوضاعٍ شديدة الصعوبة، ولا غاية لهم سوى التخفيف من حاجة الآخرين وآلامهم. وأمام النموذج الذي يقدِّمونه، نجد أنفسنا مرغمين على طرد هذه الروح الشريرة، روح اللامبالاة.

في المُؤسَّسة، نعمل على تسيير الأفعال في مسارات الصحة ـ التي تشمل حقوق الإنجاب ـ، والتعليم، والاستقلال الاقتصاديّ، والحماية من العنف والاستغلال.

منذ عام 2016، صرنا نضع تركيزنا على اللَّاجئين أيضًا، ولا سيَّما قرب الحدود الفاصلة بين الولايات المتَّحدة والمكسيك، هناك حيث تخيِّم أزمةٌ إنسانيَّةٌ على الآلاف والآلاف من الأشخاص الهاربين من عنف أميركا الوسطى، طالبي اللجوء. إنَّ الأكثر معاناةً والأكثر عرضةً للأخطار هم الأطفال والنساء. غير أنَّ الإجراءات الرادعة التي تبنَّتها حكومة الولايات المتَّحدة كادت تُبطِل الحقّ في طلب اللجوء.

أمَّا الحجَّة التي يُدفَع بها ضدّ المهاجرين أنَّهم يأتون لاستغلال الخدمات الاجتماعيَّة، والاستحواذ على فرص أهل البلد وتغيير الثقافة،

وهي عبارةٌ مُخفَّفةٌ يُقصَد بها أنَّهم ليسوا من أصحاب البشرة البيضاء، ولكن من المُثبَت أنَّهم، متى سُمِح لهم بالاندماج، يسهمون في البلد بأكثر كثيرًا ممَّا يحصلون عليه.

بين المهاجرين واللَّاجئين اختلاف، لأنَّ الأوائل يتَّخذون قرار السفر إلى مكانٍ آخر لتحسين أوضاع الحياة التي يعيشونها. وهم بطبيعة الحال من الشباب الأصحَّاء الذين يسعون إلى التأقلم بأسرع ما يُمكن، ويتطلَّعون إلى المستقبل، ويرغبون في مدِّ جذورٍ لهم (بينما يتخلَّف المُسنُّون عن الركب). أمَّا اللَّاجئون فيهربون للنجاة بحياتهم من النزاعات المُسلَّحة والملاحقات والجريمة والفقر الحادّ، مع الأخذ في الاعتبار أنَّهم يائسون مُرغَمون على التخلِّي عن كلِّ ما هو مألوف للبحث عن ملاذٍ في مكانٍ آخر، حيث يُرجَّح استقبالهم بعدوانيَّة. ويُشكِّل الأطفال والنساء نصف اللَّاجئين الذين قُدِّرَت أعدادهم بسبعين مليون لاجئٍ عام 2018، والعدد آخذ في الزيادة عامًا بعد عام.

يتغذَّى اللَّاجئ على الذكريات والحنين، وعيناه على الماضي، حالمًا بالعودة إلى بيته، ولكن مُتوسِّط عمر أولئك الذين يذهبون بعيدًا يتراوح ما بين بين السابعة عشرة والخامسة والعشرين عامًا. والكثير لا يملك العودة أبدًا، بل إنَّهم سوف يظلّون من الغرباء دائمًا. إنَّ تلك الأزمة العالميَّة، التي لن تلبث أن تتفاقم بفعل موجاتٍ جديدةٍ من اللَّاجئين النازحين عن أراضيهم تحت وطأة التغيُّر المناخيّ، لا يمكن حلّها بتشييد الجدران وإنَّما بتقديم المساعدة وحلّ مُسبِّبات الأزمة التي تدفع الناس إلى الهرب من مواطنهم الأصليَّة.

«يجب عليك أن تفهم الآتي:
لا أحد يضع أبناءه على متن قارب،
ما لم تكُن المياه آمَن من الأرض.
لا أحد يحرق يدَيْه تحت عجلات القطار، والعربات،
لا أحد يُمضِي أيَّامه ولياليه في جوف شاحنة،
حيث يأكل الورق، ما لم تكُن الأميال التي يقطعها،
أكثر من مُجرَّد رحلة.
لا أحد يزحف تحت الأسوار،
لا أحد يودُّ أن يتكبَّد الضرب، ولا الشفقة.
لا أحد يختار مخيم اللاجئين،
أو التفتيش، أو آلام الجسد،
أو السجن، ما لم يكُن السجن آمَن من مدينةٍ تحترق،
ما لم يكُن الحارس الليليّ في السجن أفضل
من شاحنةٍ مكتظةٍ برجالٍ يشبهون أباك».

ورسان شاير،

«بيت»

يُعَدّ الاستثمار في النساء واحدًا من الطرق الأكثر فعاليَّة للتأثير في العالَم على نحوٍ إيجابيّ. في المناطق الأشدّ عوزًا، تنفق الأمّ دخلها على الأسرة، في حين لا يرصد الرجل إلَّا ثلث دخله للأسرة. أي أنَّ المرأة، بإيجاز، هي التي تنفق على غذاء الأبناء وصحَّتهم وتعليمهم، بينما ينفق الرجل على نفسه، سواء أكان ذلك بالإنفاق في سبيل التسلية أو الحصول على ما يضفي إليه شيئًا من الوجاهة، كالهاتف المحمول أو الدرَّاجة.

ولقد تعلَّمتُ أنَّه من المُمكن عمل الكثير بقليلٍ من المساعدة. ما دامت المرأة تملك القرار والدخل الخاصّ، تبقى الأسرة أفضل حالًا. ولو ازدهرَت الأسرة، تقدَّم المجتمع، وبالتالي البلد. هكذا تُكسَر حلقة البؤس. إنَّ المجتمعات الأكثر تخلُّفًا هي تلك التي تعاني المرأة فيها من الخضوع. وعلى الرَّغم من ذلك، تتغافل الحكومات والمنظَّمات غير الهادفة إلى الربح عن تلك الحقيقة الجليَّة في كثيرٍ من الأحيان. من حسن الحظّ أنَّ الوضع يتغيَّر بقدر ما تملك المرأة من القدرة على اتِّخاذ القرار السياسيّ أو الموارد اللَّازمة للأعمال الخيريَّة، الموارد التي تُرصَد لدعم مشروعاتٍ نسائيَّةٍ بوجه العموم.

النساء في حاجةٍ إلى التواصل في ما بينهنَّ. تقول أدريان ريتش، الشاعرة الأميركيَّة النسويَّة، «إنَّ الصلات القائمة بين النساء هي الأكثر إشاعةً للرهبة في النفوس، والأكثر إشكاليَّةً، والقوَّة الأقدر على تحويل الكوكب». وتفسِّر الملاحظة المذكورة، الجديرة بالاهتمام، ذلك الضيق الذي يشعر به رجالٌ كثيرون متى اجتمعَت النساء. في ظنِّهم أنَّنا نتآمر، وهم على حقٍّ في بعض الأحيان.

تحتاج النساء إلى التواصل فيما بينهنَّ. منذ بدء الزمان، اجتمعَت النساء حول البئر، والمطبخ، والمهد، في الحقول، والمصانع، والبيوت، رغبةً منهنَّ في مشاركة الأخريات حياتهنَّ، وسماع قصص الأخريات. لا شيء مُسلٍّ بقدر الحديث الدائر بين النساء، الذي غالبًا ما يكون حميمًا وشخصيًّا. حتى النميمة مُسلِّية، وفيمَ الإنكار!

يُعَدُّ الإقصاء والانعزال هو الكابوس الذي يراودنا، فكلٌّ منَّا بمفردها امرأةٌ هشَّة. ولكن، معًا نزدهر. على الرَّغم من ذلك، تعيش

الملايين من النساء حبيسات، محروماتٍ من الحرِّيَّة والوسائل التي تسمح لهنَّ بالتحرُّك خارج محيط البيت المحدود.

منذ أعوام، زرتُ أنا ولوري مجتمعًا صغيرًا من النساء في كينيا. كانت الاتِّجاهات التي تلقَّيناها مبهمةً إلى حدٍّ بعيد، غير أن لوري، وهي أكثر إقدامًا على المغامرة إذا ما قورِنَت بي، أمرَتني بأن أعتمر القبعة لنذهب سَيْرًا عَبْر دربٍ يتلوَّى كالأفعى بين المساحات الخضراء. ما لبث أن اختفى الدرب، فمضينا على عمى طويلًا، وقد استحوذ عليَّ شعورٌ بأنَّنا تُهنا إلى الأبد، ولكنَّ لوري رفعَت الشعار القائل بأنَّ «كل الطرق تؤدِّي إلى روما». وبينما أنا على وشك البكاء في الأدغال الكثيفة، تناهَت إلينا أصوات، أناشيدٌ مُتموِّجةٌ بأصواتٍ أنثويَّة، كالأمواج على شاطئ البحر. وتلك هي البوصلة التي أرشدَتنا إلى كيبيسون.

وصلنا إلى رقعةٍ جرداء من الغابة، باحةٍ ضخمةٍ تضمّ بيتَيْن بدائيَّيْن، ومساحةٍ تشبه السقيفة، مُخصَّصةٍ للطبخ وتناول الطعام وإلقاء الدروس والخياطة وصناعة المشغولات اليدويَّة. ذهبنا لزيارة إستير أوديامبو، المرأة المحترفة التي تقاعدَت بعد سنواتٍ من العمل في نيروبي واتَّخذَت قرارها بالعودة إلى قريتها على مشارف بحيرة فيكتوريا. وهناك وجدَت نفسها أمام مأساةٍ حقيقيَّة. إذ كان الرجال يروحون ويغدون في حياةٍ من الترحال، باحثين عن العمل، في ظلِّ غياب الاستقرار الاقتصاديّ، وهكذا انتشرَت الدعارة وضَرَب مرضُ نقص المناعة المكتسب تعدادَ السكَّان بشدَّة، وقضى على جيل الوسط، جيل الآباء والأمَّهات، فلم يبقَ سوى الأجداد والأطفال. وكانت وفيات النساء تضاهي وفيات الرجال عددًا.

عندما وصلَت إستير، كانت المعلومات قليلةً عن المرض وطرق انتشار العدوى، التي نُسِبَت إلى أسبابٍ سحريَّة، ولم يكُن العلاج منه مُتوفِّرًا. فعزمَت على مواجهة الخرافة، وتعليم الأهالي، فضلًا عن تقديم المساعدة، وبخاصَّة للنساء اللاتي لا يملكن إلَّا موارد هزيلة. وهكذا نذرَت أملاكها لتلك القضيَّة.

عندما وصلنا إلى هنا، رأيتُ أنا ولوري أطفالًا يلعبون، أو يؤدُّون الواجبات المدرسيَّة بالطبشور على سبوراتٍ صغيرة، أو يرسمون أرقامًا وحروفًا بالعصيّ على الأرض، ورأينا مجموعاتٍ من النساء يطهون الطعام ويغسلن ويصنعن المشغولات اليدويَّة التي يبعنها في السوق للمساعدة على إعالة المجتمع.

قدَّمنا نفسَيْنا باللُّغة الإنجليزيَّة، وأدَّت إستير أوديامبو مهمَّة المترجم الفوري. رأتنا النساء أجنبيَّتَيْن، وعرفن أنَّنا قد جئنا من بعيد، فتحلَّقن حولنا في ما يشبه الدوَّامة، وقدَّمن لنا الشاي الأحمر المرّ، وجلسن حولنا في دائرةٍ ليحكين حياتهنَّ، تلك الحياة المُؤلَّفة من العمل والفقد والألم والحبّ في الأساس.

كُنَّ أرامل، وزوجاتٍ مهجورات، ومراهقاتٍ حوامل، وجدَّاتٍ تولَّين مسؤولية الأحفاد أو أبناء الأحفاد اليتامى، كحال امرأةٍ بدَت لي طاعنةً في السنّ، رأيتُها تُرضِع طفلًا في الشهور الأولى من العمر. حتى هي ما كانت تعرف كم تبلغ من العمر. وأمام دهشتنا الجليَّة، أوضحَت لنا إستير أن الجدّة قد تدرّ الحليب مُجدَّدًا في بعض الأحيان، لو دعَت الحاجة إلى إرضاع الحفيد. «لا بدَّ أنَّ تلك السيِّدة قاربَت الثمانين من العمر»، أردفَت. لعلَّها كانت تبالغ... كثيرًا ما حكيتُ هذه النادرة، فلم يصدِّقني أحدٌ في هذه الأنحاء، غير أنَّني رأيتُ أمرًا مشابهًا في بلدةٍ صغيرةٍ على بحيرة أتيتلان، في غواتيمالا.

كانت حكايات نساء كيبيسون مأساويَّة، فبعضهنَّ فقد معظم أفراد الأسرة الذين أودى بهم مرض نقص المناعة المكتسب. وعلى الرَّغم من ذلك، لم يبدُ عليهنَّ الحزن. في تلك الحلقة، كان أيّ عذرٍ يكفي للضحك، إطلاق النكات، وسخرية بعضهنَّ من البعض الآخر، وسخريَّتهنَّ جميعًا منِّي أنا ولوري. أوجزَت إستير أوديامبو الأمر في عبارةٍ واحدة، إذ قالت: «متى اجتمعَت النساء، شعرن بالبهجة». بحلول المساء، ألقين علينا تحيَّة الوداع غناءً. كُنَّ يمضين الوقت في الغناء. ربَّما لم يَعُد مجتمع كيبيسون على قيد الوجود، لأنَّ تلك المغامرة التي خضتُها مع لوري وقعَت منذ عدَّة أعوام، ولكنَّ الدرس لا يُنسَى.

لا أجد أدنى صعوبة في تخيُّل مجموعاتٍ مثل نساء كيبيسون، من كلِّ الأعراق والمعتقدات والأعمار، جالساتٍ في حلقة، يشاركن الحكايات والآمال والكفاح، يبكيْن ويضحكن ويعملن معًا. أي قوَّةٍ عاتيةٍ قد يخلقن في تلك الحلقات! إذا اجتمعَت الملايين منها، تمكَّنَت النساء من القضاء على النظام الأبويّ. ولا بأس بذلك. لا بدَّ أن تُمنَح الفرصة لذلك المورد الطبيعيّ الهائل المُتجدِّد، أي طاقة المرأة.

في الستينيَّات، عندما صارَت الحبوب وغيرها من وسائل منع الحمل في متناول الجمهور، صار تحرير المرأة أوسع انتشارًا. وأخيرًا، بات في مقدور المرأة أن تعيش حياةً جنسيَّةً بلا خوفٍ من الحمل غير المرغوب. لكم أن تتخيَّلوا المعارضة الدِّينيَّة والذكوريَّة في تشيلي! عند ذاك، افترضتُ أنَّ نهاية النظام الأبويّ أمرٌ لا بدّ منه. ولكن مسافةً طويلةً ما زالت تفصلنا عنها. لقد حقَّقنا الكثير، ولكن ما زال أمامنا أكثر وأكثر. فنحن نُسلَب الحقوق، متى امتلكناها، بأيِّ ذريعة: الحرب، أو الأصوليَّة،

أو الديكتاتوريَّة، أو الأزمة الاقتصاديَّة، أو أيّ كارثة. في الولايات المتَّحدة، وخلال الألفيَّة الثانية، لم يقتصر الجدال على الحقّ في الإجهاض فحسب، وإنَّما امتدَّ ليشمل حقّ المرأة في استخدام وسائل منع الحمل. وبطبيعة الحال، لا أحد يناقش حقّ الرجل في إجراء عمليَّة قطع القناة الدافقة أو استخدام الواقي الذكريّ.

تساعد مُؤسَّستي في تمويل عيادات وبرامج تحديد النسل، بما في ذلك الإجهاض. الأمر الذي لمسني عن كثب، لأنَّني، وأنا في الثامنة عشرة من العمر، اضطُرِرتُ إلى تقديم المساعدة لفتاةٍ حبلى في الخامسة عشرة، طالبة في المرحلة الثانويَّة. دعونا نسمِّيها سيلينا، فأنا لا أملك الإفصاح عن اسمها الحقيقيّ. لاذَت بي لأنَّها لم تجرؤ على البوح بالأمر إلى والدَيْها. في غمرة اليأس، وصلَت إلى حدِّ التَّفكير في الانتحار، إلى تلك الدَّرجة بلغَت خطورة الوضع. في تشيلي، كان القانون يعاقب على الإجهاض بصرامة، وإن كان يُمارَس على نطاقٍ واسع (وما زال يُمارَس) في السرّ. كانت الأوضاع وما زالت في غاية الخطورة.

لا أذكر كيف توصَّلتُ إلى اسم شخصٍ قادرٍ على حلّ مشكلة سيلينا. استقللنا حافلتَيْن وصولًا إلى حيٍّ متواضعٍ وسرنا لأكثر من نصف ساعة بحثًا عن العنوان الذي احتفظتُ به مُدوَّنًا في ورقة. وأخيرًا وصلنا إلى شقَّةٍ في الطابق الثالث، في بناءٍ من الطوب، كباقي الأبنية الاثني عشر القائمة في الشارع نفسه، حيث تتدلَّى الثياب من الشرفات، وتطفح الحاويات بالقمامة.

استقبلَتنا امرأةٌ يبدو على مظهرها التعب، كانت في انتظارنا، لأنَّني أخطرتُها عَبْر الهاتف، وأخبرتُها باسم الشخص الذي أوصلني بها. صاحَت في الطفلَيْن اللذيْن كانا يلعبان في الصالة وأمرَتهما بالذهاب

إلى حُجرتهما وإقفال الباب. كان من الواضح أنَّ الصغيرَيْن قد ألفا ذلك الروتين، إذ انصرفا من دون أن ينبس أيٌّ منهما بحرفٍ واحد. في أحد أركان المطبخ، جاء صوت الأخبار والإعلانات التجاريَّة مُدوِّيًا عَبْر الراديو.

سألَت المرأةُ سيلينا عن تاريخ العادة الشهريَّة الأخيرة، ثمَّ أجرَت بعض الحسابات، وبدَت راضية. أخبرَتنا بأنَّ العمليَّة سريعةٌ وآمنة، وبأنَّها سوف تستخدم المُخدِّر مقابل زيادةٍ طفيفةٍ في السعر المُتَّفق عليه. وضعَت وسادةً ومفرشًا من المطاط على الطاولة الوحيدة في المكان، التي يُرجَّح أنَّها كانت مائدة الطعام أيضًا، ثمَّ أمرَت سيلينا بخلع ثيابها الداخليَّة والصعود إلى الطاولة. تفحَّصَتها سريعًا ثمَّ وضعَت أنبوب قسطرةٍ في وريد الذراع. «اشتغلتُ بالتمريض، وأملك الخبرة اللَّازمة»، قالَت شارحة. ثمَّ أردفَت بأنَّ دوري ينحصر في ضخّ المُخدِّر في وريد صديقتي رويدًا رويدًا، ما يكفي لتفقد الحس، لا أكثر. «حذار، عسى ألَّا تفلت يدكِ»، حذَّرَتني.

وما هي إلَّا ثوانٍ حتى كادَت سيلينا تفقد الوعي، وفي أقلِّ من خمس عشرة دقيقة، امتلأ الدلو الذي كان تحت الطاولة بعددٍ من الأسمال الدامية. لم أرِد أن أتخيَّل تلك العمليَّة من دون تخدير، كما يحدث غالبًا في ظلّ تلك الأوضاع. أخذَت يداي ترتجفان بشدَّة، حتى إنِّي لا أدري كيف تدبَّرتُ حالي لأحقنها بالمُخدِّر. وبانتهاء العمليَّة، طلبتُ الإذن في الدخول إلى الحمام، وأفرغتُ ما في جوفي.

بعد دقائق، حين أفاقَت سيلينا، صرفَتنا المرأة من دون أن تمهلها الوقت الكافي لتستردَّ وعيها، وناولَتها بضعة أقراصٍ مُغلَّفةٍ بقطعةٍ من الورق. «مضادَّاتٍ حيويَّة، تناولي واحدًا كلّ اثنتي عشرة ساعة، لثلاثة أيَّام. لو أصبتِ بحمّى أو بدأتِ تنزفين بشدَّة، يجب عليكِ الذهاب إلى

المستشفى. ولكن هذا لن يحدث، فلي يدٌ ماهرة»، قالَت. وحذَّرَتنا بأنَّنا لو أفصحنا عن اسمها أو عنوانها لجرَّ ذلك علينا عواقب وخيمة.

لم أتمكَّن قطّ من نسيان تلك التجربة التي وقعَت منذ ستّين عامًا. ولقد وصفتُها في عددٍ من كتبي، وأعيشها مرَّةً أخرى في كوابيسي. من أجل سيلينا وملايين النساء اللاتي خضن تجربةً مماثلة، لا ألين في الدفاع عن حقوق الإنجاب. ما دام الإجهاض مشروعًا، وما دام يجري في ظلِّ أوضاعٍ ملائمة، فهو لا يُعَدّ تجربةً صادمةً بوجهٍ خاص، كما تُظهِر دراسات كثيرة. أمَّا النساء اللاتي يضطررن إلى إنهاء الحمل غير المرغوب، رغم عجزهنَّ عن الإجهاض، فيتكبَّدن صدمةً أشدّ.

أحترم أولئك الذين يرفضون الإجهاض لأسبابٍ دينيَّةٍ أو غير ذلك من الأسباب، أمَّا فرض المعيار نفسه على من لا يشاركونهم المنظور، فشيءٌ غير مقبول. يجب أن يكون الخيار في متناول أولئك الذين يحتاجون إليه.

يجب أن تكون وسائل منع الحمل مجَّانيَّةً ومتاحةً لكلّ شابة، منذ بدء العادة الشهريَّة. لو كان الوضع كذلك، لقلّ عدد حالات الحمل المفاجئ، ولكن تلك الوسائل، على أرض الواقع، تستلزم وصفةً طبِّيَّةً في كثيرٍ من الأحيان، ولا يشملها التأمين الصحيّ، وربَّما ترتَّبَت عليها أعراضٌ جانبيَّةٌ كريهةٌ جدًّا. أضف إلى ذلك أنَّ النتائج ليسَت مضمونةً في كلِّ مرَّة.

يقع عبء تنظيم الأسرة على عاتق المرأة ـ إذ يرفض كثيرٌ من الرجال استخدام الواقي الذكريّ، ويقذفون من دون حساب العواقب ـ ثمَّ يُلقَى عليها باللائمة لو حبلَت، «لأنَّها لم تأخذ حذرها». لدينا عبارةٌ سائدةٌ

تقول: «تركَت نفسها تحبل»، أي أنَّها سمحَت بذلك وعليها أن تدفع الثمن. يمتنع المعترضون على الإجهاض عن تحميل الرجل مسؤوليَّة أفعاله، مع أنَّ الإخصاب من دون مشاركته مستحيل. كما أنَّهم لا يتساءلون بجدِّيَّةٍ عن الدافع الذي يحدو بالمرأة إلى إنهاء الحمل، عن الأسباب العمليَّة أو العاطفيَّة، عمَّا يعنيه الإنجاب في تلك اللحظة من حياتها.

لقد ابتسم لي الحظّ، لأنَّني لم أمرّ قطّ بتجربة كتلك التي عاشَتها سيلينا، بل إنَّني استطعتُ تنظيم أسرتي، بالحبوب أوَّلًا، ثمَّ باستخدام اللولب، فلم أنجب سوى ابنَيْن. وعلى الرَّغم من ذلك، ما عدتُ أحتمل أيًّا من الوسائل المعتادة وأنا في الثامنة والثلاثين من العمر، وأخيرًا خضعتُ لعمليَّة ربط قناة فالوب. بدا لي قرارًا حتميًّا، ولكنّي ندمتُ عليه بعد زمنٍ طويل. فمن جهة، تعقَّدَت العمليَّة وأسفرَت عن التهابٍ خطير. ومن جهةٍ أخرى، شعرتُ بأنَّني مُشوَّهة. لماذا اضطُرِرتُ إلى كلِّ هذا؟ لماذا لم يخضع زوجي لعمليَّة قطع القناة الدافقة، مع الأخذ في الاعتبار أنَّ تلك الجراحة أيسر كثيرًا؟ لأنَّ النسويَّة لم تسعفني لمطالبته بذلك.

اتَّخذَت حفيدتاي قرارهما بعدم الإنجاب، لأنَّه يُمثِّل مشقَّةً بالغة، وبسبب الزيادة السكَّانيَّة التي يشهدها الكوكب. من ناحية، أشعر بالحزن قليلًا لأنَّهما سوف تفوّتان على نفسَيْهما تلك التجربة، التي وجدتُها رائعة. ومن ناحيةٍ أخرى، أحتفي بحرِّيَّة هاتيْن الشابَّتَيْن في الاختيار. وعلى الرَّغم من ذلك، أخشى أن تنقرض عائلتنا، ما لم ينتبه حفيدي الوحيد ويجد زوجةً ودودًا.

طوال قرون، تمكَّنَت النساء من التحكُّم في الخصوبة عن طريق معرفتهنَّ بدورة الحيض، والأعشاب، وطرق الإجهاض، ولكن تلك

المعرفة قد اجتُثَّت من الجذور، وادَّعى الرجال ملكيَّتهم لجسد الأنثى، بسبب الحطّ من شأن المرأة.

من يبتّ في جسدِ المرأة وعددِ الأبناء الذين تستطيع أو تريد إنجابهم؟ رجالُ السياسة والدين والقانون، أولئك الذين لا يخوضون تجربة الحمل ولا الولادة ولا الأمومة بأجسادهم. ما لم يتحمَّل الأبّ مسؤوليَّة الحمل بمقتضى القانون والدين والأعراف، بقدر ما تتحمَّلها الأمّ، فلا ينبغي للرجال الإدلاء برأيهم في تلك المسألة، التي لا تعنيهم في شيء. إنَّه قرارٌ شخصيٌّ يعني كلّ امرأة، لأنَّ تحكُّم المرأة في خصوبتها من الحقوق الأصيلة للإنسان.

في ألمانيا النازيَّة، كانت عقوبة الإجهاض سجن المرأة وإرغامها على الحمل، وإعدام الشخص الذي يُجرِي العمليَّة. كان الواجب يملي على المرأة أن تقدِّم أبناءً للرايخ. وكانت الأمَّهات اللاتي ينجبن ثمانية أبناءٍ يُكافأنَ بوسامٍ من الذهب. في عددٍ من بلدان أميركا اللَّاتينيَّة، تبلغ القوانين المُتعلِّقة بالإجهاض حدًّا مفرطًا من القسوة، حتى إنَّ المرأة التي تسقط جنينها من دون عمدٍ قد تُتَّهم بالإجهاض المُتعمَّد، ويُزَجّ بها في السجن لعدَّة أعوام. في تشيلي، تعرَّضَت الطفلة بيلين للاغتصاب على يد زوج أمّها عام 2013، بينما هي لم تزَل في الحادية عشرة من العمر، فحبلَت منه ولم يُسمَح لها بالإجهاض، على الرَّغم من الفضيحة الدوليَّة وضغوط المنظَّمات المدنيَّة.

من الضروري رفع التجريم عن الإجهاض، أيّ رفع العقوبة عنه. الأمر الذي يختلف عن التقنين، لأنَّ القوانين يفرضها النظام الأبويّ. وبتقنين الإجهاض، تظلّ السلطة بين أيدي القضاة والساسة ورجال الشرطة وهياكل مُذكِّرة أخرى. في جملةٍ اعتراضيَّة، أضيف أنَّ

المشتغلات بالجنس لا يرغبن في تقنين الدعارة للسبب نفسه، وإنَّما يرغبن في رفع التجريم عنها.

تجدر الإشارة إلى نادرةٍ مُتعلِّقةٍ بما سبق ذكره، ومفادها أنَّ ستيف كينغ، عضو الكونغرس الأميركيّ، تقدَّم بمقترحٍ لإبطال الحقّ في الإجهاض حتى في حالات الاغتصاب أو الجنس مع ذوي القربى، «فماذا يجري لو راجعنا كلّ أشجار العائلات وانتزعنا كلّ ثمار الاغتصاب أو الجنس مع ذوي القربى؟ هل يبقى من سُكَّان العالَم أحدٌ؟ مع الأخذ في الحسبان جميع الحروب وعمليَّات الاغتصاب والنهب التي تعرَّضَت لها شتّى الأمم، حتى أنا لا أملك التأكيد أنَّني لستُ ثمرة ذلك». باختصار، كان ذلك دفاعًا عن الاغتصاب والجنس مع ذوي القربى باعتباره أمرًا طبيعيًّا وعاديًّا. وقَّع المقترح ثمانية وأربعون عضوًا من أعضاء الكونغرس، ينتمون إلى الحزب الجمهوريّ.

كما قال عضوٌ آخر من أعضاء الكونغرس الأميركيّ، ويُدعَى تود أكين، إنَّ الاغتصاب لا يسفر عن الحمل إلَّا في ما ندر، لأنَّ جسد الأنثى لديْه طرقٌ خاصَّةٌ في الانغلاق منعًا لوقوع الحمل. وطبقًا لما زعم أكين، فالرحم قادرٌ على التمييز بين «الاغتصاب المشروع» (؟) وغيره من أشكال الجنس، بطريقةٍ سحريَّة. كان ذلك النابغة عضوًا في لجنة العلوم والفضاء والتكنولوجيا.

في الولايات المتَّحدة، يُبلَغ عن اثنيْن وثلاثين ألف حالة حملٍ من الاغتصاب كلّ عام.

تريد النساء لو امتلكن السيطرة على حياتهنَّ، وخصوبتهنَّ، الأمر الذي لا يمكن أن يتحقَّق ما استمرَّت معانتهنَّ من العنف المنزليّ، وما

بقي مصيرهنَّ بين أيدي المُستغِلّ. منذ أمدٍ بعيد، في أواخر الستينيَّات ومطلع السبعينيَّات، حين كنتُ أشتغل بالصحافة في تشيلي، أجريتُ عددًا من التقارير الصحافيَّة في قرى شديدة الفقر، حيث تسكن عائلات كاملةٌ داخل مساكن من الورق المُقوَّى والألواح الخشبيَّة، رجالٌ عاطلون، ومدمنو كحول، ونساءٌ مُثقلات بالأبناء، وضحايا بؤسٍ وإساءة واستغلال. كان من المشاهد الشائعة أن يصل الرجل مخمورًا أو ببساطةٍ مصابًا بالإحباط، فينهال على زوجته أو أبنائه ضربًا. ما كانت الشرطة تتدخَّل. بسبب اللامبالاة من جهة، لأنَّ أولئك الرجال من أصحاب الزيّ المُوحَّد كثيرًا ما يقترفون الأمر نفسه في بيوتهم، ومن جهةٍ أخرى لأنَّهم لا يقدرون على الدخول إلى محلّ سكنٍ ما لم يكُن لديْهم أمرٌ يسمح باقتحام المكان، حسبما يُفترَض. وأمام الأمر الواقع، اتَّفقَت الجارات على أن يحضرن فور سماع صراخ الزوجة أو الأبناء، مُسلَّحاتٍ بالمقالي والمغارف، حتى ينال المُعتدِي الجزاء الذي يستحقّه. كان ذلك النظام فعَّالًا، وسريع المفعول.

في خزي، أعترف بأنَّ تشيلي كانت آنذاك واحدةً من البلدان التي تُسجَّل فيها أعلى مُعدَّلات العنف المنزليّ في العالَم، وما زالَت، ولكن ربَّما كان السَّبب وجود الإحصاءات في تلك المناطق، حيث يُبلَغ عن تلك الحالات أكثر ممَّا يُبلَغ عنها في مناطق أخرى. يُرتكَب العنف المنزليّ في كلِّ الأوساط الاجتماعيَّة، وإن كان مُستتِرًا في الطبقات العليا. أحيانًا لا تقع الإساءة الجسديَّة. وعلى الرَّغم من ذلك، فربَّما أسفر التعذيب النفسيّ والاستغلال العاطفيّ عن القدر نفسه من الأذى.

تتعرَّض واحدةٌ من كلِّ ثلاث نساءٍ للإساءة الجسديَّة أو الجنسيَّة في حياتها، بغضِّ النظر عن المظهر أو العمر. سوف أذكِّركم

بالأغنية التي وضعَتها أربع شاباتٍ من تشيلي، في عام 2019، تلك الأغنية التي طافَت العالم وصارت نشيد النسويَّة، وتُرجِمَت إلى لغاتٍ كثيرة، وقدَّمَتها الآلاف والآلاف من النساء في الشوارع والميادين، بعيونٍ معصوبة.

أمَّا جهاز الكارابينيروس (الشرطة) في تشيلي، الذي اتَّسم بأسلوبه العنيف، فلقد رفع دعوى أمام المحكمة ضدّ فريق لاستيسيس (LASTESIS) لأنَّه «يمثِّل تهديدًا للمُؤسَّسة، ويتعدَّى على السلطة، ويحرِّض على الكراهية والعنف». الأمر الذي أثار ردود فعلٍ دوليَّةٍ لدعم مُؤلِّفات الأغنية.

في سطورٍ قليلة، تلخِّص الأغنية ما تمرّ به أو تخشاه كلّ امرأة.

«النظام الأبويّ قاضٍ، يحاكمنا لأننا وُلِدنا،
وعقابنا هو العنف الذي لا تراه.
إنَّه قتل النساء.
هوذا قاتلي يفلت من العقاب.
إنَّه اليأس.
إنَّه الاغتصاب.
لم يكُن الذنب ذنبي،
ولا المكان الذي إليه ذهبت،
ولا الثياب التي ارتديت،
أمَّا المغتصب فكنتَ أنت».

لاستيسيس،
«مُغتصِبٌ في طريقك»

إنَّ وجود العنف ضدّ المرأة مُستمِرٌّ منذ آلاف الأعوام، إلى الحدّ الذي يجعلنا نتفادى تعريض أنفسنا للخطر تلقائيًّا. الأمر الذي يضيِّق علينا الخناق بشدَّة. فما يفعله أكثر الرجال من دون تفكير، كالسَّيْر في الشارع ليلًا أو الدخول إلى حانةٍ أو إيقاف سيَّارةٍ على الطريق، يُطلِق إنذارًا في أذهاننا. أتستحقّ المخاطرة هذا العناء؟

يُعَدّ العنف المنزليّ سائدًا في تشيلي، حتى إنَّ أوَّل امرأةٍ تتولَّى منصب الرئاسة، ميتشيل باتشيليت (عن الفترة من 2006 إلى 2010 ثمَّ الفترة من 2014 إلى 2018)، قد اتَّخذَت من مكافحة العنف المنزليّ أولويةً أساسيَّة لحكومتها، عن طريق التعليم والتدريب وتوفير البيانات والملاجئ وقوانين الحماية. كما سمحَت بتوفير وسائل منع الحمل مجانًا وفي يسر. لم تستطِع تمرير قانونٍ يقضي برفع التجريم عن الإجهاض من خلال مجلس النوَّاب.

تُعَدّ حياة هذه البطلة رواية، فلقد درسَت الطبّ، لأنَّها طريقةٌ مُحدَّدةٌ لمساعدة أولئك الذين يتكبَّدون المعاناة، حسبما قالَت في لقاءٍ لها، ثمَّ تخصَّصَت في طبّ الأطفال. خلال الأيَّام الأولى من الانقلاب العسكريّ الذي وقع سنة 1973، اعتُقِل والدها، الجنرال ألبِرتو باتشيليت، على أيدي رفاقه في السلاح، لأنَّه امتنع عن المشاركة في التمرُّد على الحكومة الديمقراطيَّة، ولَقِيَ حتفه عام 1974، من جرَّاء التعذيب الذي أفضى إلى إصابته بنوبةٍ قلبيَّة.

ألقَت الشرطة السياسيَّة القبض على ميتشيل وأمّها، وأخضعَتهما للتعذيب في بيًّا غريمالدي سيِّئة السُّمعة، التي صارَت اليوم متحفًا يشهد على الفظائع المُرتكَبة في تلك الأعوام. أمكن إنقاذها، فسافرَت إلى منفاها في أستراليا، ومن هناك إلى ألمانيا الشرقيَّة. وبعد مضي

بضعة أعوام، تمكَّنَت من العودة إلى تشيلي، حيث أتمَّت دراسة الطبّ. شغلَت مختلف المناصب، حتى عادت الديمقراطيَّة عام 1990، حينذاك بدأت مسيرتها السياسيَّة.

في منصب وزيرة الصحَّة، صرَّحَت ميتشيل بتوزيع «حبوب اليوم التالي» على النساء والبنات فوق الرابعة عشر، تجنُّبًا للحمل بعد الجنس مباشرةً. في تشيلي، حيث تملك الكنيسة وأحزاب اليمين نفوذًا واسعًا، حيث الإجهاض غير مشروع، أثار ذلك الإجراء معارضةً شعواء، ولكنَّه أكسب الوزيرة الاحترام والشعبيَّة.

في عام 2017، وافق مجلس النوَّاب التشيلي على الإجهاض في ثلاث حالات: الخطر المباشر على حياة الأمّ، وإصابة الجنين بمرضٍ يتعذَّر معه العيش خارج الرحم، والاغتصاب. يمكن إجراء عمليَّة الإجهاض خلال الأسابيع الاثني عشر الأولى من الحمل، أو الأسابيع الأربعة عشر الأولى ما دامت الفتاة في الرابعة عشرة من العمر أو دون ذلك. ولكن القيود التي فُرِضَت على الحالات المذكورة تبلغ من الكثرة حدًّا يكاد يجعل من ذلك القانون مزحةً تهدف إلى تهدئة غالبية النساء المطالبات به. وفي المظاهرات الحاشدة التي أثارها الوضع، اصطفّ عددٌ كبيرٌ من النساء كاشفاتٍ عن صدورهنَّ، مُؤكِّداتٍ أنَّ أجسادهنَّ ملكٌ لهنَّ.

في عام 2002، نُصِّبَت ميتشيل وزيرة الدفاع، وهي أوَّل امرأةٍ تتولَّى ذلك المنصب في أميركا اللَّاتينيَّة، وواحدة من النساء القليلات في العالَم. فكانت من نصيبها تلك المهمَّة البطوليَّة المُتمثِّلة في السَّعي إلى عقد المصالحة بين العسكريِّين وضحايا الديكتاتوريَّة، والحصول على تعهُّدٍ من القوات المُسلَّحة بألَّا تعاود التمرُّد على الديمقراطيَّة أبدًا.

أجد صعوبةً في تخيُّل الطريقة التي استطاعَت بها تلك المرأة أن تتجاوز صدمة الماضي، فضلًا عن التفاهم وتلك المُؤسَّسة التي لم تكتفِ بإقامة نظامٍ رهيب طوال سبعة عشر عامًا في بلد ميتشيل، بل إنَّها اغتالَت والدها وعذَّبَتها هي وأمّها ثمَّ نفَتها إلى الخارج أيضًا. كان أحد مُعذِّبيها يعيش في البناء نفسه، وعادةً ما كانت تقابله في المصعد. حين سأل ميتشيل باتشيليت عن الحاجة إلى المصالحة الوطنيَّة، أجابته بأنَّه قرارٌ شخصيّ، فلا يمكن لأحدٍ أن يطالب أولئك الذين تكبَّدوا القمع بالمغفرة. يجب على البلد أن يمضي قدُمًا نحو المستقبل، مُحمَّلًا بعبء الماضي الثقيل.

«لسوف أطأ الشوارع بقدمَيْ من جديد
شوارع تلك المدينة التي
كانتها سانتياغو المُضرَّجة بالدماء،
وفي ميدانٍ رائع الجمال، مُحرَّر،
سأقف، وأبكي الغائبين».

پابلو ميَّانيس،
«لسوف أطأ الشوارع بقدمَيْ من جديد»

مكتبة
t.me/soramnqraa

لو علم خليفة بغداد أنَّ ما نريده، نحن النساء، هو الحبّ قبل كلّ شيء، لراق له ذلك. في أدمغتنا شيءٌ غريب، ضربٌ من الأورام، يدفعنا إلى الحبّ دفعًا. من دون حبّ، لا نملك العيش. في سبيل الحبّ، نحتمل صغارنا، ونحتمل الرجال. بل إنَّ تفانينا يكاد يغدو شكلًا من أشكال المخدوميَّة. هل انتبهتم إلى الفردانيَّة والأنانيَّة اللَّتيْن تُعتبَران من

سِمات الرجال الحميدة ومن عيوب النساء؟ نميل إلى بذل أنفسنا من أجل الأبناء والرفاق والآباء ومن أجل سائر الناس تقريبًا. نخضع ونضحّي بأنفسنا في سبيل الحبّ، الأمر الذي يبدو لنا قمَّة النُبْل. فكلَّما زدْنا شقاءً بالحبّ، زدنا نُبلًا، كما يُرَى بوضوحٍ في المسلسلات التلفزيونيَّة. إنَّ الثقافة تُبجِّل الحبَّ على اعتباره أسمى الأشياء، فنقع طوعًا في ذلك الشرك اللذيذ، بسبب الورم الذي في أدمغتنا، نحن النساء. ولا أستثني من ذلك نفسي، بل إنَّ الورم الذي أصابني من أشدّ الأورام خبثًا.

سأتجنَّب الإشارة إلى حبّ الأمّ، الذي لا يجوز المساس به، وأي مزحةٍ أجترئ على إلقائها بشأن حبّ الأمّ سأدفع ثمنها باهظًا. في إحدى المرَّات، قلتُ لابني نيكولاس أن يحصل على كلبٍ بدلًا من المجيء بأطفالٍ إلى هذا العالَم، فلم يغفر لي ما بدر منِّي قطّ. بل إنَّه تزوَّج في الثانية والعشرين وأنجب ثلاثة أطفالٍ في خمسة أعوام. يتحلَّى نيكولاس بغريزة أمومةٍ مفرطة التطوُّر. لا بأس بأحفادي على الإطلاق، ولكنَّ الكلاب تروقني أيضًا.

لا أجرؤ على انتقاد حبّ الأمّ المفعم بالهوس، فمن المُؤكَّد أنَّ ذلك هو السَّبب الوحيد في نجاة الأنواع، بدءًا بالوطاويط، وصولًا إلى التكنوقراطيِّين. وبالمثل سأتجنَّب الإشارة إلى حبّ الطبيعة، وحبّ الرَّب، والربَّات، وغير ذلك من المفاهيم المتشابهة، لأنَّه مُجرَّد حديثٍ غير رسميّ، أبعد ما يكون عن البحث الرفيع.

بدلًا من ذلك، دعونا نتحدَّث عن الحبّ الرومانسيّ، ذلك الوهم الجمعيّ الذي بات سلعةً أخرى من السلع الاستهلاكيَّة. إنَّ صناعة الرومانسيَّة تنافس الاتجار بالمخدرات في الإصابة بالإدمان. أعتقد بأنَّ للرومانسيَّة وجهًا يختلف من امرأةٍ إلى أخرى، إذ لا تولع النساء جميعًا

بأحد مُمثلّي السينما، فكما هو حالي، يقع بعضهنَّ في غرام ضفدع، كما فعلَت الأميرة في الحكاية. في حالتي، لا يهمّ مظهر الضحيَّة، ما دامَت رائحته طيِّبة، وأسنانه لائقة، وما دام غير مُدخِّن، ولكنّي أطالب بأمورٍ من صنفٍ آخر، نادرًا ما تجتمع لأحدٍ على أرض الواقع: أطالب بالحنان، وحسّ الدعابة، والقلب الطيب، والصبر الذي يكفيه ليتحمَّلني، وسماتٍ أخرى لا أذكرها في هذه اللَّحظة، من حسن الحظّ أنَّ حبيبي الحالي يمتلك فائضًا من تلك السِمات.

حان الوقت كي أحدِّثكم عن روچر، كما وعدتكم من قبل.

لقد أفدتُ كثيرًا من الدروس العصِّيَّة على النسيان التي تعلَّمتُها في مدرسة جدِّي الصارمة، ذلك أنَّها شكَّلَت شخصيَّتي وساعدَتني على المضي قُدمًا في لحظات شديدة الصعوبة، وإن تركَت أثرًا سلبيًّا في العلاقات التي خضتُها، لأنّي لا أسلِّم نفسي، فأنا مكتفيةٌ بذاتي، وأدافع عن استقلالي. لا أجد أدنى صعوبة في العطاء، أمَّا الأخذ فيشقّ عليَّ كثيرًا. لا أقبل الخدمات ما لم أكُن قادرةً على ردِّها، وأمقت أن يقدِّم لي الآخرون هدايا، كما لا أسمح لهم بأن يحتفلوا بعيد ميلادي. ويُعَد تقبُّل الهشاشة واحدًا من أكبر التحدِّيَّات التي خضتُها، الأمر الذي بات أيسر الآن بفضل الحبّ الجديد الذي أتمنَّى أن يكون الأخير.

في واحدٍ من أيَّام مايو عام 2016، وبينما هو يقود سيَّارته من مانهاتن إلى بوسطن، استمع إليَّ عَبْر الراديو مُحام أرمل من نيويورك يُدعَى روچر. سبق له أن قرأ اثنيْن من كتبي، ولعلَّ شيئًا ممَّا قلتُ في ذلك البرنامج قد استرعى انتباهه، لأنَّه راسل مكتبي. أجبتُه، فظلَّ يكاتبني ليل نهار، كلَّ يوم، على مدى خمسة أشهر. بطبيعة الحال،

أكتفي بالردّ على أولى رسائل القارئ أو القارئة، وإلّا ما أسعفَتني الحياة لمراسلة المئات الذين يكاتبوني بانتظام، ولكن مثابرة أرمل نيويورك تركَت في نفسي أثرًا قويًّا، وهكذا بقينا على اتّصال.

كانت تشاندرا، مساعدتي آنذاك، تدمن سلاسل المُحقِّقين، ولها حاسة شمٍّ تليق بكلاب الصيد، فعرضَت أن تتحقَّق من أكبر قدرٍ مُمكنٍ من المعلومات عن ذلك الأرمل الغامض، فربَّما كان سيكوباتيًّا، المرء لا يعرف تلك الأمور أبدًا. ممَّا يدعو للدهشة قدر المعلومات المتاحة في متناول كلّ من يرغب في نبش حياتنا الشخصيَّة. دعوني أخبركم بأنَّ تشاندرا قدَّمَت لي تقريرًا كاملًا، يضمّ حتى رقم سيَّارة ذلك الرجل وأسماء أحفاده الخمسة. كانت زوجته قد رحلَت قبل مضي أعوام، فبات يعيش وحيدًا في بيتٍ كبيرٍ في سكيرديل، ويستقلّ القطار يوميًّا للذهاب إلى مانهاتن، حيث يقع مكتبه في پارك أڤنيو، إلى آخره. «يبدو سليمًا، ولكن لا ينبغي الوثوق بأحد، فربَّما كان من أتباع معماري بريندا»، حذَّرَتني تشاندرا.

في أكتوبر، سافرتُ إلى نيويورك لحضور مؤتمر، وأخيرًا تعرَّفتُ بروچر، وتأكَّدتُ أنَّه بالفعل كما يظهر في رسائله الإلكترونيَّة، وكما تحقَّقَت تشاندرا: رجلٌ شفاف. شعرتُ نحوه بمودَّةٍ كبيرة، وإن لم أصَب بصاعقة شغفٍ خارجةٍ عن السيطرة، كما حدث لي مع ويلي في عمر الخامسة والأربعين. الأمر الذي يُؤكِّد على ما قلتُ في موضعٍ سابقٍ من كون الهرمونات حاسمة. دعاني إلى العشاء، وبمضي نصف ساعة، وجَّهتُ إليه سؤالًا مباشرًا عن نواياه، لأنِّي في عمري هذا ما عدتُ أملك وقتًا لأهدره، وإذا هو يغصّ بمكرونة الراڤيولي، غير أنَّه لم يولِّ هاربًا، كما كنتُ أفعل لو كان هو الذي أوقع بي على هذا النحو.

تهيَّأ لنا قضاء ثلاثة أيَّامٍ معًا قبل أن أُضطَرّ إلى العودة إلى كاليفورنيا، فوجد روچر ذلك الوقت كافيًا ليتَّخذ قراره بألَّا يفلتني، الآن وقد عثر عليّ. وفيما هو يوصلني إلى المطار، عرض عليَّ الزواج. فأعطيتُه الردّ المُتوقَّع من سيِّدةٍ ناضجةٍ وقور: «انسَ أمر الزواج تمامًا، ولكن لو كنت مُستعدًّا للسفر إلى كاليفورنيا كثيرًا، فلنا أن نصبح عاشقَيْن، ما رأيك؟». أيُّ رجلٍ مسكين... كيف له أن يردّ؟ بالإيجاب، طبعًا.

وهكذا فعلنا طوال شهور، حتى صار الجهد المبذول في سبيل اللقاء خلال عطلةٍ أسبوعيَّة، بعد ست ساعاتٍ على متن الطائرة، أشدّ ممَّا ينبغي. عند ذاك، باع روچر بيته المُكتَظّ بقطع الأثاث والأغراض والذكريات، وأهدى جميع محتوياته، ثمَّ انتقل إلى كاليفورنيا بدرَّاجتَيْن وشيءٍ من الثياب التي سارعتُ بتبديلها لأنَّها باتَت صيحةً قديمة. «أصبحتُ لا أملك شيئًا. إن لم يُجدِ هذا نفعًا، سأضطَرُّ إلى النوم تحت أحد الجسور»، حذَّرني في قلق.مكتبة سُر مَن قرأ

طوال عامٍ وسبعة أشهر، جرَّبنا بعضنا بعضًا، وعشنا برفقة الكلبتَيْن في بيتي الخليق بالدُمَى. قدَّم كلانا تنازلات، فتقبَّلتُ أنا فوضاه وتقبَّل هو روحي المسيطرة، ودقَّتي المفرطة، وهوسي بالكتابة الذي لا يترك وقتًا طويلًا لغيرها من الأمور. تعلَّمنا تلك الرقصة المرهفة، رقصة الشركاء المتوافقين التي تسمح بالحركة على المنصَّة من دون أن يدهس أحدهما قدمَي الآخر. بانقضاء تلك الفترة، وما إن تأكَّدنا من قدرة كل منَّا على تحمُّل الآخر، عقدنا زواجنا لأنَّه رجلٌ يميل إلى التقليديَّة، تقلقه فكرة العيش في الإثم.

كان عرسًا شديد الحميميَّة، لم يحضره إلَّا أبناؤنا وأحفادنا، الذين سُرّ جميعهم سرورًا غامرًا بارتباطنا الذي يعني أنَّهم ليسوا مُضطَرِّين إلى الاعتناء بنا في الوقت الراهن، فكلانا سوف يعتني بالآخر ما وسعنا ذلك.

كانت أمِّي ستشعر بالسرور أيضًا. قبل موتها بأيَّام، طلبَت منِّي الزواج بروچر لئلَّا أكون عجوزًا وحيدة، حسبما قالت. أوضحتُ لها أنَّني لا أشعر بالتقدُّم في السنّ، ولا بالوحدة. «ما حاجتي إلى زوجٍ ناقص، ولي عاشقٌ كاملٌ ينتظرني في كاليفورنيا؟»، قلتُ مُحتجَّة. «العاشق لا يدوم، أمَّا الزوج فطريدةٌ واقعةٌ في الأسر»، هكذا كان ردّها.

يُخجِلني الاعتراف الآتي قليلًا، ولكنِّي أعتمد على هذا العاشق في مهمَّاتٍ كثيرةٍ ما كنتُ أجد أدنى صعوبة في القيام بها في ما سبق، مثل تعبئة السيَّارة بالوقود وتبديل المصابيح الكهربائيَّة. وُلِد روچر في برونكس، لأبوَيْن بولنديَّيْن. له يدان ثقيلتان تليقان بفلاح، وشخصيَّة طيِّبة. يساعدني على مصاعب هذا العالَم ولا يجعلني أشعر بأنَّني بلهاء. من دواعي سروري أنَّني قد أصغيتُ لأمِّي وتزوَّجت به. فهو طريدةٌ رائعة واقعةٌ في الأسر، وآمل ألَّا يتغيَّر.

سأله ابني عن الشعور الذي اعتراه حين تعرَّف بي، فأجاب روچر وقد تضرَّجَت وجنتاه: «شعرتُ كما لو كنتُ مراهقًا. والآن أشعر وكأنَّني طفلٌ صغيرٌ يصحو كلّ صباحٍ وهو يعرف أنَّه ذاهبٌ إلى السيرك». إنَّ كلّ شيءٍ نسبيّ، فأنا أعتبر الفترة الحالية هي الأهدأ في حياتي، لأنَّها تخلو من الميلودراما. أمَّا روچر، فلا يشعر بتضاؤل الإثارة اليوميَّة التي يجدها معي أبدًا، ولا يمرّ بلحظةٍ تبعث على الضجر قليلًا.

ربَّما كان في حاجةٍ إلى الضجر.

وبمَ شعرتُ أنا حين تعرَّفتُ بروچر؟ شعرتُ بالفضول، وبشيءٍ من الخفقان في فم المعدة، كان يدفعني في الماضي إلى ارتكاب أفعالٍ طائشة، والآن صار ينبِّهني إلى ضرورة المضي ببطءٍ وحذر، غير أنَّني لا ألقي إليه بالًا. عملًا بنظريَّتي وتطبيقي، يجب عليَّ أن أقول «نعم» للحياة، ولاحقًا أرى كيف أتدبَّر حالي، وأنا ماضيةٌ على الطريق.

بإيجاز: ما دمتُ أنا قد وجدتُ حبيبًا، فالأمل حاضرٌ لكلِّ امرأةٍ عجوزٍ ترغب في رفيق.

«أن يعود المرء إلى السابعة عشرة
بعد العيش قرنًا من الزمان،
ذلك أمرٌ يشبه كشف الطلاسم
من دون أن يكون المرء خبيرًا.
أن يعود هشًّا
كثانيةٍ من الزمان،
على حين غرَّة،
ويعود للشعور بعمق
كطفلٍ أمام الرَّب،
هكذا أشعر أنا
في هذه اللحظة الخصبة».

بيوليتا پارًا،
«أن تعود إلى السابعة عشرة»

من عادة الشباب أن يسألوني كيف يكون الحبّ في عمري. يُذهِلهم أنّني ما زلتُ قادرةً على الحديث في سلاسة، فما بالك بالوقوع في الغرام! حسنًا، الأمر يشبه الحبّ في عمر السابعة عشرة، على نحوٍ ما تُؤكِّد بيوليتا پارًا، مضافًا إليه الشعور بالاستعجال. أنا وروچر أمامنا سنواتٍ قليلة. تمرّ الأعوام خلسة، تنسلّ على أطراف الأصابع، وإذا هي تُفزِعنا على صفحة المرآة، وتوجّه الضربات إلى ظهورنا. إنَّ كلَّ دقيقةٍ ثمينة، ولا نملك إهدارها في سوء التفاهم، ونفاد الصبر، والغيرة، والخسة، وغير ذلك من الحماقات الكثيرة التي تُلطِّخ العلاقات. في الواقع، يمكن تطبيق هذه المعادلة في كلِّ الأعمار، لأنَّ كلَّ يومٍ يُحسَب له حساب. ولو كنتُ قد طبَّقتُها من قبل، لما صارَت الآن في جعبتي طلقتان.

تقول ريبيكا سولنيت في كتابها Men Explain Things to Me (الرجال يفسّرون لي أمورًا): «إنَّ النسويَّة سعيٌ إلى تغيير شيءٍ موغِلٍ في القدم، مُعمَّم، وله جذورٌ عميقةٌ في كثيرٍ من ثقافات العالَم، ربَّما أغلبها، في مُؤسَّساتٍ لا يُحصَى لها عدد، وفي أغلب البيوت القائمة على سطح الأرض، وفي أذهاننا، نحن النساء، حيث يبدأ وينتهي كلّ شيء. من المُذهِل أن يكون الحال قد تبدَّل إلى هذا الحدّ في ما لا يزيد على أربعة أو خمسة عقود. ولكن، أن لا يكون كلَّ شيءٍ قد تغيَّر على نحوٍ دائم، نهائيّ، حاسم، لا يعني الإخفاق».

إنَّ تفكيك المنظومة التي تقوم عليها دعائم الحضارة شيءٌ عسير، ويستغرق زمنًا طويلًا، ولكن ها نحن نكاد نفلح في ذلك، رويدًا رويدًا. أمَّا تلك المهمَّة المُعقَّدة المدهشة ـ مهمَّة ابتكار منظومةٍ جديدةٍ من أجل استبدال القديمة ـ فلسوف تستغرق طويلًا. نتقدَّم خطوتَيْن إلى الأمام،

ثمَّ نعود خطوةً إلى الوراء، فنتعثَّر، ونتساقط، ونعاود النهوض، بينما نحن نرتكب الأخطاء ونحتفل بالانتصارات سريعة الزوال. تأتي لحظات مُروِّعةٌ مفعمةٌ بخيبة الأمل، ولحظات أخرى حافلةٌ بزخمٍ شديد، مثل حركة #MeToo ومسيرات النساء الحاشدة في كثيرٍ من مدن العالَم. لا شيءٌ قادرٌ على الوقوف في سبيلنا، ما دامت تجمعنا رؤية للمستقبل، وما دمنا عازماتٍ على أن نجعل منها حقيقة، كلُّنا معًا.

لم يكُن النظام الأبويّ موجودًا منذ الأزل، ولا يُعَدّ مُتأصِّلًا في البشر، بل إنَّ الثقافة تفرضه علينا فرضًا. لقد سجَّلنا وجودنا على الكوكب منذ اختراع الكتابة، منذ خمسة آلاف عامٍ على وجه التقريب، في بلاد الرافدين، المُدَّة التي لا تُقارَن بنحو مئتَي ألف عامٍ هي عمر حضور الإنسان العاقل. التاريخ يكتبه الرجال، فيُمجِّدون الوقائع ويُسقِطونها وفق ما يلائمهم. أمَّا نصف البشريَّة من الإناث فيتعرَّض للتجاهل في التاريخ الرسميّ.

قبل حركة تحرير المرأة، من كان يتحدَّى مُسلَّمات الذكورية؟ كان المرء يستنكر العنصريَّة والاستعمار والاستغلال والمِلْكيَّة وتوزيع الموارد وغير ذلك من مظاهر النظام الأبويّ، ولكنَّ تلك التَّحليلات لم تشمل النساء. كان يُفترَض بأنَّ التقسيم بين الجنسَيْن ضرورةٌ تفرضها الأحياء أو يقضي بها الإله، وأنَّ السلطة بطبيعتها من نصيب الرجال. ولكنَّ الأمور لم تجرِ هكذا منذ الأزل. فقبل سيطرة الذكور، وُجِدَت أشكال تنظيمٍ أخرى. فلنحاول أن نتذكَّرها أو نتخيَّلها.

من الوارد أن أرى تغييراتٍ عميقة قبل الموت، لأنَّ الشباب قد ضاقوا ذرعًا بقدر ما ضقنا، نحن النساء. الشباب حلفاؤنا. إنَّهم في

عجلةٍ من أمرهم، ولقد سئموا النموذج الاقتصاديّ، وتخريب الطبيعة المنهجيّ، والحكومات الفاسدة، والتمييز، والتفاوت الذي يفصل بيننا ويُولِّد العنف. في حين يبدو لهم العالَم كارثيًّا، ذلك العالَم الذي سوف يرثونه، ويتولّون إدارته. يشترك في رؤية عالَمٍ أفضل ناشطون وعلماء وفنَّانون وعلماء بيئة وبعض الجماعات الرُّوحيَّة المُستقِلَّة عن أيِّ شكلٍ من أشكال الدين المُنظَّم ـ التي تكاد تكون جميعها بلا استثناء مُؤسَّسات رجعيَّة ذكوريَّة ـ وغيرهم كثيرون. صديقاتي وأصدقائي، أمامنا عملٌ كثير. لا بدَّ من تنظيف البيت وترتيبه.

وقبل كلِّ شيء، ينبغي لنا القضاء على النظام الأبويّ، تلك الحضارة التي تبلغ من العمر آلاف الأعوام، وتُمجِّد قيم الذكور (ونقائصهم)، وتُرغِم نصف البشر من الإناث على الخضوع. يجب علينا التشكيك في كلِّ شيء، بدءًا بالدين والقوانين، وصولًا إلى العلم والعادات. دعونا نغضب بجدِّيَّة، دعونا نغضب بشدَّة، حتى يُفتِّت غضبُنا الدعائم التي تقوم عليها هذه الحضارة. أمَّا سهولة القياد، التي تُمجَّد باعتبارها فضيلةً أنثويَّة، فهي ألدّ أعدائنا، ولم تنفعنا يومًا بشيء، بل إنَّها لا تفيد أحدًا سوى الرجال.

إنَّ الاحترام والخضوع والخوف، تلك الأمور التي يغرسونها في نفوسنا من المهد، تؤذينا إلى حدٍّ يمنعنا من الوعي بسلطتنا، تلك السلطة الهائلة إلى الدرجة التي تجعل أوَّل أهداف النظام الأبويّ إبطالها بكلِّ ما يملك من وسائل، بما في ذلك أسوأ أشكال العنف. وتؤتي هذه الطرق نتائج ممتازة، إلى حدٍّ يجعل أكبر المدافعين عن النظام الأبويّ من النساء، في حالاتٍ بالغة الكثرة.

تقول الناشطة منى الطحاوي ـ التي تبدأ جميع مؤتمراتها بإعلان المبدأ الآتي: «Fuck the patriarchy!» ـ إنَّ من واجبنا التَّحدِّي، والعصيان، وكسر القواعد. فما من طريقةٍ أخرى. لديْنا من الأسباب ما يكفي ويفيض لنخشى المواجهة، كما تشهد الأعدادُ المخيفة، أعداد النساء اللاتي يُبَعن ويُضرَبن ويُغتصَبن ويُعذَّبن ويُقتَلن، بينما يفلت المُرتكِب من العقاب في جميع أرجاء العالَم، حتى لا نذكر باقي الطرق الأقل فتكًا المُتَّبَعة لإسكاتنا وبثّ الرُّعب في نفوسنا. التَّحدِّي والعصيان وكسر القواعد أمورٌ تليق بالشابّات اللاتي لم يتحمَّلن مسؤوليَّة الأمومة بعد، والجدَّات اللائي تجاوزن عمر الإنجاب.

لقد حان الوقت كي نشارك، نحن النساء، في إدارة هذا العالَم الجدير بالرثاء، بقدر ما يديره الرجال. في كثيرٍ من الأحيان، تتصرَّف النساء في السلطة بمثل ما يتصرَّف الرجال الأشداء، لأنَّها الطريقة الوحيدة التي تسمح لهنَّ بالمنافسة والحكم، ولكن متى شغلنا عددًا مُؤثِّرًا من مناصب السلطة والقيادة، صار في مقدورنا ترجيح الكفَّة نحو حضارةٍ أوفر حظًّا من العدالة والمساواة.

إنَّ بيلا أزبوغ، الناشطة البارزة وعضوة الكونغرس عن نيويورك، قد لخَّصَت الأمر كلّه في عبارةٍ واحدةٍ منذ أكثر من أربعين عامًا: «في القرن الحادي والعشرين، سوف تُغيِّر النساء طبيعةَ السلطة، بدلًا من أن تُغيِّر السلطةُ طبيعةَ النساء».

ذات مرَّة، اقترحَت عليَّ ابنتي پاولا ألَّا أُفرِط في الحديث عن النسويَّة، لأنَّها باتَت صيحةً قديمة، ولم تعُد مُثيرة. لعلَّ پاولا كانت في العشرين من العمر تقريبًا. آنذاك، باتَت هجمةُ الثمانينيَّات المُرتدَّة على

حركة تحرير المرأة ملموسةً بالفعل، بعد أن حقَّقَت الحركة إنجازاتٍ كثيرة. خضتُ أنا وپاولا جدالًا هائلًا، حاولتُ أن أوضِّح خلاله أنَّ النسويَّة ظاهرةٌ عضويَّة، مثل كلّ الثورات، عرضةً للتغييرات والمراجعات المُستمِرَّة.

كانت پاولا تنتمي إلى جيل الشابَّات صاحبات المزايا، أولئك اللاتي جنينَ الفوائد المُترتِّبة على كفاح الأمَّهات والجدَّات، وقنعن بذلك الإنجاز، وخُيِّل إليهنَّ أنَّ كلَّ شيءٍ قد تمَّ بالفعل. أوضحتُ لها أنَّ الغالبية العظمى من النساء لم تجنِ تلك الفوائد بعد، بل إنَّها ترضى بمصيرها في تسليم، ظنًّا منها بأنَّ ذلك هو حال العالَم، ولا يمكن تغييره، على نحوٍ ما أكَّدَت لي أمِّي. «لو لم ترُق لكِ كلمة «نسويَّة»، أيًّا كان السبب، فابحثي عن غيرها، لا أقلّ أهمِّيَّةً من المُسمَّى، والشيء المُهِمّ أن تؤدِّي العمل من أجل نفسك ومن أجل أخواتكِ في سائر أنحاء العالَم، لأنَّهنَّ في حاجةٍ إلى ذلك»، قلتُ لها. فأجابتني پاولا بتنهيدة، شاخصةً بنظرها إلى السقف.

لقد برع الرجال إذ صوَّروا النسويَّات وكأنَّهنَّ ساحرات هستيريَّات مشعرات. ولسببٍ وجيهٍ، كانت الشابَّات في عمر الإنجاب، مثل پاولا آنذاك، يُصَبن بالذعر من تلك الكلمة القادرة على إبعاد الخُطَّاب المُحتمَلين. يجب عليَّ إيضاح الآتي: ما كادت ابنتي تتخرَّج من الجامعة وتدخل مجال العمل، حتى أبدَت حماسةً في اعتناق تلك الأفكار التي شربَتها ممزوجةً بحليب الأم. كان لها حبيبٌ من أسرةٍ صقلية، شابٌ فاتن، ينتظر منها أن تتعلَّم طهو المكرونة حتى يتزوَّجها، وبعد ذلك ينجبان ستَّة أبناء. رحَّب بدراسة پاولا علم النَّفس، الذي قد يكون نافعًا في تربية الأبناء، ولكنَّه أنهى الخطوبة حين قرَّرَت پاولا التخصُّص في الجنسانيَّة البشريَّة. لم يتحمَّل أن تعمل خطيبته على

قياس أعضاء رجالٍ آخرين ونشواتهم الجنسيَّة. لا ألقي عليه باللَّائمة، أيّ شابٍ مسكين!

ماتَت ابنتي منذ أعوامٍ طوال، وما زلتُ أفكِّر فيها كلَّ ليلةٍ قبل النوم، وكلَّ نهارٍ بعد الاستيقاظ. كم أفتقدها! كانت ستشعر بسعادةٍ جارفة لو تحقَّقَت من وجود موجةٍ جديدةٍ من النسويَّات الشابات، اللاتي يخضن التحدِّي في بهجةٍ وإبداع.

أمرٌ حاليًا بفترةٍ في غاية السعادة. والسعادة ليسَت صارخةً ولا صاخبة، كالبهجة أو اللَّذة، بل إنَّها صامتة، هادئة، ناعمة، إنَّها حالةٌ داخليَّة من حالات الرفاهية، تبدأ بحبِّي لنفسي. أنا حرَّة. ولا يجب عليَّ أن أثبت شيئًا لأحد، كائنًا من كان، ولستُ مُضطرَّةً إلى العناية بالأبناء أو الأحفاد، فكلُّهم ناضج، مُكتفٍ بذاته. لقد «وفيتُ»، على نحوٍ ما كانت جدَّتي ستقول، وحقَّقتُ أكثر من المُتوقَّع بكثير.

مِن الناس مَن يملك مُخطَّطًا للمستقبل، بل ويفكِّر في مسيرةٍ أيضًا، الأمر الذي لا ينطبق على حالتي، كما قلتُ من قبل. كان التكفُّل بذاتي هو الهدف الوحيد الذي وضعتُه نصب عينَيّ منذ الصغر، ولقد حقَّقتُ الهدف. أمَّا البقيَّة الباقية من المسيرة، فقطعتُها وأنا أتلمَّس طريقي. يقول چون لينون: «إنَّ الحياة هي ما يجري والمرء منشغلٌ في وضع مُخطَّطاتٍ أخرى». أي أنَّ الحياة تُصنَع بالسَّيْر من دون خارطة، ولا طريق للعودة إلى الوراء. لم أتحكَّم في الأحداث الكبرى التي حدَّدَت مصيري وشخصيَّتي، مثل اختفاء أبي، والانقلاب العسكريّ الذي وقع في تشيلي، والاغتراب، وموت ابنتي، ونجاح رواية بيت الأرواح، وإصابة ثلاثةٍ من أبناء زوجي بإدمان المخدرات، وطلاقي مرتَيْن. ربَّما أمكن

الزَّعم بأنَّني كنتُ مُتحَكِّمةً في الطلاق، ولكنَّ نجاح رباط الزواج رهنٌ بمُشاركَيْن اثنيْن.

إنَّ تقدُّمي في السنّ هدية نفيسة. ما زال دماغي يعمل، ويروق لي. أشعر بأنَّني أكثر خفَّة. لقد تحرَّرتُ من الشعور بعدم الأمان، والرغبات اللَّامعقولة، والعُقَد عديمة الجدوى، وغيرها من الخطايا المميتة التي لا تستحقّ العناء. أترك الأمور تمضي إلى سبيلها، أفلتها من يدي... كان عليَّ أن أفعل ذلك من قبل.

يجيء الناس ويذهبون، حتى أقرب أفراد الأسرة يتفرَّقون. لا فائدة تُرتجَى من التشبُّث بأحد، أو بشيء، لأنَّ جميع ما في الكون يميل إلى الافتراق والفوضى والاضطراب، لا التماسك. لقد اخترتُ حياةً بسيطة، تقلّ فيها الأغراض المادِّيَّة وتكثر أوقات الفراغ، تقلّ فيها المشاغل وتكثر التسلية، تقلّ فيها الالتزامات الاجتماعيَّة وتكثر الصداقة الحقيقيَّة، تقلّ فيها الجلبة ويكثر الصمت.

لا أدري ما إذا كنتُ سأحقِّق جميع ما سبق لو لم تنجح كتبي، الأمر الذي يعفيني من عدم الاستقرار الاقتصاديّ الذي يؤرِّق الغالبية العظمى من المُسنِّين. أتمتَّع بالحرِّيَّة لأنَّني أملك الموارد اللَّازمة لأعيش الحياة التي أرغب فيها. وتلك مزية.

عندما أستيقظ كلَّ نهار، وبعد أن ألقي التحيَّة على پاولا وپانتشيتا وباقي الأرواح الحاضرة، وبينما الحُجرة لا تزال معتمة، غارقةً في الصمت، أنادي روحي كي تعود إليَّ، روحي التي ما زالت طليقةً في محيط الأحلام، وأعرب عن امتناني لما أملك، ولا سيَّما الحبّ والصحَّة والكتابة. وأمتنّ للحياة الرحبة الشغوف التي عشتُها وسأعيشها. لستُ مُستَعِدَّةً لأمرِّر شعلتي، وآمل ألَّا أستعدّ لذلك أبدًا. أودُّ لو أضرمتُ النار

في شعلات بناتنا وحفيداتنا، مستعينةً على ذلك بشعلتي. سوف يتعيَّن عليهنَّ العيش من أجلنا، كما عشنا نحن من أجل أمَّهاتنا، والاستمرار في العمل الذي لم يسعفنا الوقت لإنهائه.

أكتب هذه الصفحات في مارس من عام 2020، حبيسةً في بيتنا مع روچر، بسبب أزمة فيروس الكورونا. (بدلًا من هذه التأمُّلات، يجب عليَّ أن أكتب روايةً مُستلهَمةً من غارسيا ماركيز: الحبّ في زمن الكورونا). في عمرنا هذا، لو أُصِبتُ أنا أو روچر بالفيروس لأصبحنا في حالةٍ حرجة. لا نملك الشكوى، لأنَّنا اَمَن ألف مرَّة من أبطال اليوم، النساء والرجال الذين يحاربون الفيروس في الصفوف الأولى، ونحظى بقدرٍ أكبر كثيرًا من الراحة إذا ما قُورِنَّا بالغالبية العُظمى من أولئك المرغمين على البقاء في بيوتهم حتى إشعارٍ جديد. أغتمّ لمُجرَّد التفكير في المُسنِّين الوحيدين، والمرضى، ومن لا سقف لهم، أولئك الذين يعيشون على الحدّ الأدنى، بلا حماية، المُكدَّسين في مساكن غير صحِّيَّة، أو مخيَّمات اللَّاجئين، وغيرهم الكثيرين ممَّن يتكبَّدون المعاناة في ظلّ هذا الظرف الطارئ، من دون موارد.

أتمتَّع أنا وروچر بالحظّ السعيد. تسلّينا الكلبتان وترافقاننا، فلا نشعر بالضجر. يعمل روچر عن بعد، باستخدام الكمبيوتر، جالسًا إلى الطاولة في حُجرة الطعام، بينما أكتب صامتةً في علّيتي، وخلال الساعات الفائضة نقرأ ونشاهد الأفلام على شاشة التلفزيون. ما زال يُسمَح بالخروج والتمشية، بشرط الحفاظ على مسافة مترَيْن بين الأشخاص، ما يساعدنا على تصفية الذهن. ربَّما كان هذا هو شهر العسل الذي لم نقضِه قطّ، بسبب مشاغلنا المفرطة.

أعترف بأنَّنا، على الرَّغم من القيود المفروضة بسبب الجائحة، ندعو الضيوف إلى العشاء في بعض الأحيان. إذ يدعو روچر أبناءه وأحفاده من واشنطن وبوسطن عَبْر تطبيق زوم (Zoom)، فيحضِّرون الطعام نفسه في كلٍّ من البيوت الثلاثة، ويجلسون لتناول الطعام وتجاذب أطراف الحديث، بينما الكل مُمسِكٌ بكأسٍ من النبيذ. أمَّا ضيوفي أنا، فهي الأرواح الصالحة التي ترافقني في الحياة، وبعض الشخصيَّات الأدبيَّة. وهكذا جاءت إليسا سومرز لرؤيتي. لم تعُد هي الفتاة العاشقة في منطقة حُمّى الذهب الوحشيَّة، بل صارت عجوزًا قويَّةً حكيمة، تعلِّق من عنقها الصرّة الصغيرة التي تضمّ رماد زوجها. حدَّثتُها عن هذا الكتاب، واستطعتُ أن أحكي لها كم أحرزنا من التقدُّم، نحن النساء، في آخر قرنٍ ونصف من الزمان. لا أدري ما إذا صدَّقَتني.

ما زلتُ أنا وروچر في هذه الخلوة الغريبة منذ أسبوعَيْن، ونحن بخيرٍ حتى الآن، وإن كنتُ أخشى ألَّا يسعفنا الصبر ولا الحنان ولا الانضباط كي نحتمل أحدنا الآخر لو طالت هذه الأزمة كثيرًا. إنَّ التعايش القسريّ في مساحةٍ ضيِّقةٍ أمرٌ شديد الإزعاج. يُقال إنَّ مئات الآلاف من الزوجات والأزواج قد طلبوا الطلاق في الصين، هناك حيث فُرِض الحجر الصحيّ أولًا.

لا أحد يذكر كارثةً عالميَّةً بتلك الجسامة. في الحالات القصوى كلّها، يطفو على السطح أفضل ما في الأشخاص وأسوأه، فيظهر الأبطال والأشرار. حتى طباع الشعوب تتجلَّى بوضوح. في إيطاليا، يُطِلّ الناس من الشرفات ويرفعون عقيرتهم بغناء أعمال الأوبرا لرفع الروح المعنويَّة، بينما يشتري غيرهم السلاح في أمكنةٍ أخرى. ولقد بلغني للتوّ أنَّ مبيعات الشكولاتة والنبيذ والواقي قد ارتفعَت في تشيلي. كيف كُنَّا سنتخيَّل

أنَّ العالَم كما نعرفه قد يتداعى بهذه الطريقة في أيَّامٍ قلائل؟ عُلِّقَت الحياة الاجتماعيَّة، ومُنِعَت كلُّ التجمُّعات، بدءًا بمباريات كرة القدم وحتى جلسات العلاج من إدمان الكحول، أُقفِلَت أبواب المدارس والجامعات والمطاعم والمقاهي والمكاتب والمتاجر وغيرها الكثير. أمَّا السفر، فإيَّاك أن تذكره! فقد الملايين وظائفهم، وشرع الناس يكدِّسون الأطعمة والسلع، فنفد ورقُ التواليت من السوق أوَّلًا، الأمر الذي لا أعرف له تفسيرًا. من يملك بعض المُدَّخرات في البنك يسحبها ويحتفظ بالأوراق الماليَّة تحت الفراش. انهارت البورصة. وأخيرًا حانت اللحظة الحاسمة لاقتصاد الاستهلاك غير المستدام. الشوارع خاوية، والمدن صامتة، والشعوب مذعورة، والكثيرون منَّا يشكِّكون في حضارتنا.

وعلى الرَّغم من ذلك، فالأمر لم يقتصر على الأخبار السَّيِّئة. إذ انخفض مُعدَّل التلوُّث، وصارت المياه في قنوات البندقية صافيةً مثل الكريستال، وعادَت سماء بكين زرقاء، وسُمِعَت تغريدات العصافير بين ناطحات السحاب في نيويورك. بينما يتواصل الأقرباء والأصدقاء والزملاء والجيران بالطرق الممكنة حتى يدعموا بعضهم بعضًا. أمَّا العاشقون المُتردِّدون، فيخطِّطون للعيش معًا حالما يتهيَّأ لهم اللقاء. وفجأةً، أدركنا أنَّ الحبَّ هو ما يهمُّ حقًّا.

يقول المتشائمون إنَّها ديستوبيا تليق بالخيال العلميّ، سوف ينتهي الحال فيها بالبشر وقد انقسموا إلى قبائل همجيَّة وأكلوا بعضهم بعضًا، كما جرى في رواية الطريق المُروِّعة، للكاتب كورماك ماكارثي. بينما يفكِّر الواقعيُّون أنَّها سوف تمرّ، كما مرّ غيرها الكثير من كوارث التاريخ، وأنَّنا سوف نُضطَرّ إلى تحمُّل العواقب على المدى الطويل. أمَّا نحن، المتفائلون، فنعتقد بأنَّ ذلك هو الزلزال الذي كُنَّا في حاجةٍ إليه

كي نسير في الاتّجاه الصحيح، فرصةً فريدة لإدخال تغييراتٍ ضاربة في العمق. بدأت هذه الحال باعتبارها أزمةً صحة، ولكنَّها أكثر من ذلك بكثير، فهي أزمة حكومة، وقيادة، وصلاتٍ إنسانيَّة، وقِيم، وشكل الحياة على الكوكب. لا نستطيع الاستمرار في حضارةٍ قائمةٍ على المادِّيَّة اللَّامحدودة، والجشع، والعنف.

حان وقت التأمُّل. أيّ عالَمٍ نريد؟ أعتقد بأنَّ هذا هو السؤال الأهمّ في وقتنا الراهن، السُّؤال الذي يجب أن تطرحه على نفسها كلّ امرأةٍ واعية، وكلّ رجلٍ واعٍ، السؤال الذي كان يجب على خليفة بغداد أن يطرحه على اللصّ في تلك الحكاية العتيقة.

نريد عالَمًا مُطعَّمًا بالجمال، لا ذلك الذي يُقدَّر بالحواس فحسب، بل وكذلك الجمال الذي يُدرَك بالقلب المفتوح والذهن الصافي. نريد كوكبًا بكرًا، في مأمنٍ من كلِّ أشكال العدوان. نريد حضارةً متوازنة، مستدامة، قائمةً على الاحترام المُتبادَل بيننا، واحترام الطبيعة وباقي الأنواع. نريد حضارةً احتوائيَّةً عادلة، خاليةً من التمييز القائم على أساس الجنس أو العرق أو الطبقة أو العمر أو أيِّ تصنيفٍ آخر قد يفصل بيننا. نريد عالَمًا ودودًا يسود فيه السلام والتعاطف والأخلاق الحميدة والحقّ والرحمة. وفوق كلِّ شيء، نريد عالمًا مبهجًا. إلى هذا تصبو نفوسنا، نحن الساحرات الطيِّبات. ليس ما نرغب فيه خيالًا، بل إنه مشروع. ويمكننا تحقيقه كلّنا معًا.

متى انتهَت أزمة فيروس الكورونا، خرجنا من أوكارنا، ودخلنا إلى وضعٍ طبيعيٍّ جديد، بحذر. عند ذاك، نعانق بعضنا بعضًا في الشوارع قبل كل شيء. كم افتقدنا الاتّصال بالناس! لسوف نحتفل بكلِّ لقاءٍ ونعتني بشؤون القلب في مودة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

شكر وعرفان

لكل من لوري بارّا وسارة هيلشيم على العمل الرائع الذي تؤدِّيان في مُؤسَّستي.

ولويس ميكيل پالوماريس وماريبيل لوكي وچوانا كاستيّو، وكلائي الذي خطرَت لهم فكرة الكتابة عن النسويَّة.

ونوريا تي ودابيد تریاس وچنيفر هيرشي، مُحرِّرو نصوصي في دار پلاثا إي خانيس ودار بالانتاين.

وكاڤيتا رامداس، مُوجِّهتنا في المُؤسَّسة، لأنها شاركَتني معارفها بوضع المرأة في العالَم.

ولاورا پالوماريس لأنها أحاطَتني علمًا بشأن النسويَّات الشابَّات.

ولاورين غوتبرت لأنها حرَّرَت ترجمتي إلى الإنجليزيَّة.

والبطلات اللاتي ألتقي بهنَّ كلَّ يومٍ عن طريق مُؤسَّستي، أولئك اللاتي حكين لي عن حياتهنَّ وألهمنني هذا الكتاب.

والنسويَّات اللاتي شكَّلنني في طور الشباب وما زلتُ أهتدي بهنَّ.

صدر للمؤلِّفة في دار الآداب

- العاشق الياباني
- ما وراء الشتاء
- باولا
- بيت الأرواح
- إيفا لونا
- إبنة الحظ
- سفينة نيرودا
- صورة عتيقة
- الحب والظلال
- فيوليتا

في لقاءٍ طال انتظاره، تُحدِّثنا الروائيَّة التشيليَّة حديثًا صادقًا، وتدعونا لمرافقتها في رحلةٍ حميمةٍ بدأت منذ الطفولة، رحلة حياتها الحافلة الصاخبة، لأنَّ «الحياةَ الهادئةَ الآمنةَ ليست مادَّةً جيِّدة للخيال». تحكي لنا إيزابيل ألليندي عن الحبّ؛ «الذي لا ينبت مثل النبتة البرِّيَّة، وإنَّما يُغرس بعناية»؛ عن العمر «الذي يجري والمرء منشغل في وضع مُخطَّطاتٍ أُخرى»؛ عن تجربتها في لبنان وأسفارها إلى شتَّى أنحاءِ العالم، عن مسيرتها روائيَّةً ونسويَّةً، عن معنى أن تكون امرأةً في عالَم الرجال. تُحدِّثنا عن أمِّها، تلك الشجرة الراسخة جذورها؛ عن ابنتها باولا التي رحلَت وهي في زهرةِ العمر؛ عن رفيقات الدرب؛ عن النساء اللاتي دهمن عالَم الرجال، عن نساء الروح.

إيزابيل ألليندي، التي وُلدتْ في البيرو، وترعرعتْ في تشيلي، هي صاحبة الروايات الأكثر مبيعًا واحتفاءً من قِبَل النقَّاد، كـ «بيت الأرواح» و«باولا». بيع من رواياتها أكثر من 70 مليون نسخة في أرجاء العالم.

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

دار الآداب

مكتبة
t.me/soramnqraa